بذور خير

الميزاب الذهبي

ALTINOLUK

مجلة فصلية– العدد ٣٩ (كانون الثاني– نيسان ٢٠٢٣)

يقول الله تعالى:

«وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا
بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (الأعراف: ٤٣)

معيَّة اللّٰه تعالى

على طريق رحلة الفوز العظيم

كلمة التحرير

أيها الأخوة القرآء:

يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} (التوبة، ١١٩)

فالآية الكريمة تحمل إشارة إلهية لطيفة بأن معية الله تعالى تبدأ بمعية الصالحين، والتحصن بتقوى الله يبدأ بمصاحبة الصادقين والتقرب منهم.

فالاستئناس بأهل القلوب ومصاحبة الصالحين والصادقين هو السبيل لتهيئة القلب أن يتلقى الفيوضات والروحانيات، وكذلك هو السبيل لوقاية القلب من خبث المؤثرات وسهام الدنيا، فيكون القلب في مأمن أمين وحصن حصين، لا يناله إلا الخير؛ إذ هو أضعف الأعضاء مقاومة، وأشدها تأثرًا بما حولها، وأميلها إلى اتباع الدنيا وما فيها مهما كان ما فيها.

وهناك حقيقة مهمة عن القلب ينبغي أن نقف عليها ونعيها جيدًا، وهي أنه سريع الانسجام والتأقلم مع الوسط الذي يعيش فيه، فإذا كانت الميول القلبية المحيطة ميولًا إيجابية انحاز إليها، وإذا كانت الميول القلبية المحيطة ميولًا سلبية مال إليها.

وكلما كان القلب بعيدًا عن المؤثرات الإيجابية، وبعيدًا عن النضج المعنوي، ظل هدفًا كبيرًا للمخاطر، فالتأثيرات الخارجية في البيئة المحيطة به قد تدفعه إلى قبولها حتى يحبها، أو تدفعه لرفضها حتى يكرهها؛ لذا فإن المحبة والكراهية درجة مهمة من المؤثرات القلبية ينبغي على أهل التربية استخدامها بمهارة، لأنها تؤثر بشدة في الترقية الروحية للإنسان أو حتى في تدنيه.

وإنَ معية الله والوصال مع أنس حضرته، ومن وصل إلى هذه الدرجة أدرك درجة الولاية، وأدرك مثالية الأخلاق التي يرضى الله تعالى عنها.

هكذا كانت أخلاق النبي ﷺ، وهكذا كانت حياته الروحية، لم يكتفِ عليه الصلاة والسلام بإحدى الطريقتين؛ بل علَّم وورَّث الصحابة والتابعين والأمة جميعًا الحياة الظاهرة والباطنة، والسلوكيات والمجاهدات المفسرة وغير المفسرة، فمن اكتفى بالظاهر فقط قصر باعه، ومن تعدى للباطن طال ذراعه، فنال الآمال ووجد الإقبال.

الميزاب الذهبي

مجلة تصدركل أربعة أشهر

العدد التاسع والثلاثون

(كانون الثاني– نيسان ٢٠٢٣)

رئيس التحرير

بيت الله دميرجي أوغلو

مدير التحرير

حسام يوسف

هيئة التحرير

بيت اللّٰه دميرجي اغلوا

حسام يوسف

آدم أزدمير

د. مراد قايا

لقمان حلوجي

التصحيح والتدقيق اللغوي

أ. حسن مرشد

التصميم والتنضيد والاخراج الفني

حسام يوسف

دار النشر والطباعة

Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60 / 3C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Tel:+90 212 671 07 00 Faks:+90 212 671 07 48

الإشتراك

لكي تصلكم المجلة بشكل دوري

يمكنكم الإشتراك سنوياً بمبلغ ٣٠ دولار

كما يمكنكم المساهمة بإرسال المقالات والملاحظات على عناوين المجلة

للمراسلة

www.islamicpublishing.org
almizab2011@hotmail.com
almizab2011@gmail.com

المحتويات

٣

معية الله تعالى

الدكتور: آدم أركول

٢٠

العدل أساس الملك

علي رضا تمل

٢٨

رمضان العمر

الأستاذ:: عثمان نوري طوبّاش

٤١

النفس وحقيقتها

لقمان حلوجي

كلمة التحرير	١
معيَّة اللّٰه تعالى	٣
الصدق والعناية والاستقامة	٦
الفوز العظيم في القرآن الكريم	٨
الحياة دين و الدين حياة	١٠
الجوانب الإعجازية في القران الكريم	١٤
قُوا أهليكم من النار	١٦
العدل أساس المُلك	٢٠
روح تِلك المؤلفات	٢٢
الظالمون لأنفسهم	٢٦
معرفة اللّٰه تعالى	٢٧
رمضان العمر	٢٨
لا تلوث نفسك بأدران الدنيا	٣٥
حق التفائل	٣٨
النفس وحقيقتها	٤٠
عروة بن مسعود	٤٣
السعادة بعيدة المنال	٤٦
القرآن الكريم مصدر عزة وشرف	٥٠
التربية المعنوية في عصر السعادة	٥٤

ملاحظة: المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

الفوز العظيم

الدكتور. آدم أركول

معيَّة الله تعالى

على طريق رحلة الفوز العظيم

إن القرآن الكريم يجعل الفوز العظيم- النجاة من النار والفوز بالجنة- هدفاً لابن آدم. والوصول إلى هذا الهدف ليس بالأمر الهيِّن، إذ إن الطريق إليه محفوف بالمخاطر ومليء بالمصائد والعوائق.

ومن بعض المفاجآت التي تظهر على طريق هذه الرحلة الشاقة المنعرجات والمنحدرات الشديدة، والمتاهات، والمخاطر، والابتلاءات، وأشكال الشرور التي تبدو بصورة الخير، وألوان الخير التي تبدو بصورة الشر، وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى.

ولا ريب أنه ليس من اليسير على الإطلاق القدرةُ على تجاوز الآلاف من العقبات والموانع مثل همسات النفس الداخلية، والوساوس والحيل التي ينسج حبالها شياطين الإنس والجن، ومباهج الدنيا وزخارفها ومغرياتها، وجاذبية الذنوب والمعاصي، وثقل الطاعات والعبادات على النفس.

إنه لفلاح عظيم ما بعده فلاح أن يستطيع الإنسان المرور من معبر الدنيا بسلام، وينتظر يوم المحشر في غياهب القبر بأمان، ويقف بين يدي ربه يوم الحساب أبيض الوجه، ثم يجتاز الصراط دون السقوط في حفر جهنم، ليدخل في النهاية إلى الجنة. ويبيِّن القرآن الكريم لنا بأن الفلاح والفوز الحقيقي في الدنيا والآخرة لا يُطلَق إلا على هذا الفوز. ولا شك أن تحصيل هذا الفوز العظيم لا يتم أبداً بغير عون الله سبحانه وتعالى. ويخبرنا القرآن الكريم بأن السعداء من عباد الله ممن يدخلون الجنة يُقِرُّون بهذه الحقيقة شاكرين حامدين في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ٤٣)

وطالما أن وصول العبد إلى هذه النتيجة بغير توفيق ربِّه جلّ جلاله وعنايته وعونه أمرٌ صعبٌ وشاقٌّ إلى هذه الدرجة، فما هي المعتقدات والأعمال والفضائل الأخلاقية التي توصل العبد إلى عناية ربه ومعيَّته؟

إن اكتشاف هذا السر سيكون بحد ذاته إحساناً وإكراماً إلهياً عظيماً لنا، لأنه لا مكان للخوف والحزن في معية الله سبحانه وتعالى. ونودُّ أن نورد بشأن هذا الموضوع مثالَين من القرآن الكريم:

يخبر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأن سيدنا موسى عليه السلام خرج بقومه ليلاً لينقذهم من ظلم فرعون. وعندما أشرقت الشمس وعلم فرعون بخروجهم تَبِعَه هو وأعوانه للقبض عليه وعلى من معه من المؤمنين. ولما اقترب الجمعان ورأى بعضهم بعضاً، قال أصحاب سيدنا موسى عليه السلام:

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ. وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(الشعراء: ٥٢-٦٧)

فإذا كان ربنا سبحانه وتعالى قد أكرم عبداً من عباده بمعيته، فإن ذلك العبد لن يقف حائراً في الطريق، ولن يمنعه أي خطر عن إتمام مسيره.

وكذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام عندما دخل غار ثور، كان يُذكِّر صاحبَه ورفيق دربه أبي بكر الصديق ﷺ بالحقيقة ذاتها، وذلك بقوله له:

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)

والآن؛ دعونا نبحث عن إجابة للسؤال المطروح في الأعلى:

ما الوسائل التي توصل العبد إلى سر هذه المعية الإلهية التي ترفع عنه كافة أشكال الخوف والحزن والكدر؟

يرينا القرآن الكريم الطريق هنا كما هو شأنه المعتاد في كل أمر، إذ يخبرنا عن العباد الذين هم في معية الله، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١٩)

فالله سبحانه وتعالى سوف يلقي الأمن والطمأنينة على عباده المؤمنين الذين دخلَ الإيمانُ قلوبهم، وذلك في الدنيا وفي القبر ويوم الحشر. فهم سوف يكونون بحال من السكينة والأمان يوم يفزع جميع الناس.

ولا شك أن هذه الحال سوف تكون على قدر درجة الإيمان؛ إذ إن الوصول إلى مرتبة اليقين في الإيمان هي الخطوة الأولى لدخول العبد المؤمن الجنة وهو ما يزال في الدنيا.

﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤)

إن إحدى أهم صفات العباد الذين هم في معية الله سبحانه وتعالى إنما هي التقوى.

والعباد المتَّقون هم الذين تخفق قلوبهم وترتجف أمام العظمة الإلهية، والذين يحيون حياتهم ضمن الحدود التي رسمها لهم ربهم سبحانه وتعالى فلا يتجاوزونها أبداً، والذين يحفظون أنفسهم من التعرض لغضب الله سبحانه وتعالى وعذابه، والذين

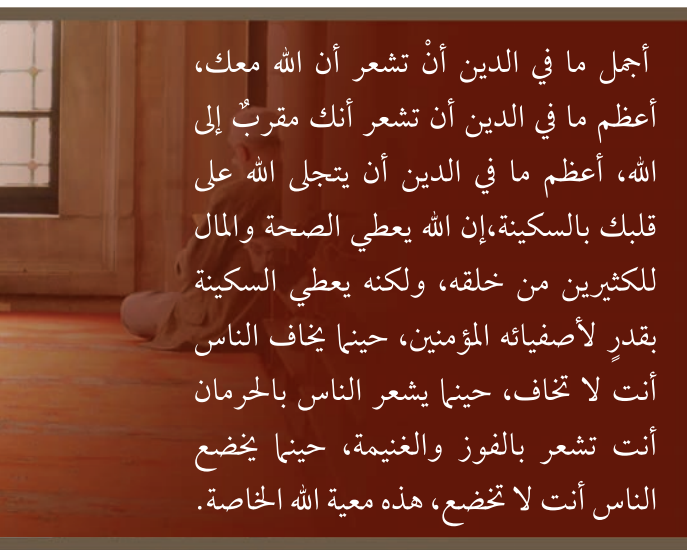

أجمل ما في الدين أنْ تشعر أن الله معك، أعظم ما في الدين أن تشعر أنك مقربٌ إلى الله، أعظم ما في الدين أن يتجلى الله على قلبك بالسكينة،إن الله يعطي الصحة والمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، حينما يخاف الناس أنت لا تخاف، حينما يشعر الناس بالحرمان أنت تشعر بالفوز والغنيمة، حينما يخضع الناس أنت لا تخضع، هذه معية الله الخاصة.

يتضرعون دائماً إلى ربهم مدركين ضعفهم وعجزهم أمام عظمته وجبروته.

فهذه طائفة من الذين نالوا نصيباً من سر المعية مع ربهم سبحانه وتعالى. وعن مثل هؤلاء يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣)

﴿... وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩؛)

وهم الذين يحرصون على أداء أعمالهم بأحسن صورة، ويزيِّنون حياتهم بالإحسان إلى المخلوقات وإكرامها، والأهم من ذلك أنهم يؤدون واجب العبودية وهم يشعرون بمراقبة الله لهم ونظره إليهم.

فهؤلاء العباد المميَّزون هم أيضاً أحد الأصناف الذين يبلغون سر المعية الإلهية.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)

إن الصبر عامل ضروري ولا بد منه للثبات على الإيمان، والاستمرار بالتقوى، والنصر في المعركة، والتوفيق للإحسان.

والصبر أحد الأخلاق الفاضلة والحميدة التي تجلب للمتصف بها عون ربنا ومعيَّته. وهو الملجأ والمسند الضروري والهام في كل أحوال العبد، سواء في فعل الخير والطاعات، أو ترك الذنوب والمعصيات، أو في زيادة الأجر والثواب عند التعرض للمصائب والابتلاءات.

والصبر هو الزاد الذي لا غنى عنه لكل فلاح وخلاص.

واختيار ربنا سبحانه وتعالى الصبر من بين الكثير من الفضائل وربط معيته به يلفت انتباهنا إلى السر فيه. والأمر الإلهي المتمثل بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣)

كافٍ لجذب أنظار القلوب الحية إلى عظمة مكانة الصبر في سر المعية.

وصفوة الكلام أن نيل الفوز العظيم المتمثِّل بالنجاة من النار ودخول الجنة يرتبط بنيل معية الله تعالى.

وإن السعي وبذل الجهد لامتلاك مفاتيح الصبر، والإيمان، والتقوى، والإحسان التي وصفها الله تعالى بسرِّ المعية سوف تقينا في هذه الرحلة الشاقة من الخوف والحزن، وتعيننا في الوصول إلى هدفنا المنشود. عندئذ الماضي الحالك كله يشطب، وتفتح صفحة جديدة، والمستقبل: الجنة وما فيها من نعيم مقيم.

معية الله سبحانه وتعالى الخاصة، تعني التوفيق والحفظ، تعني التأييد والنصر، إذا كان الله معك نصرك على أعدائك، وإذا كان الله معك وكنت في عملٍ وفقك فيه، إذا كان الله معك حفظك من كل شر. معية السكينة، يُلقي الله في قلبك السكينة، تكون كالجبل الأشم لا تتزعزع، هذه المعية الخاصة، ممكن الحصول عليها ولكن بدفع ثمنها.

من حديقة القرآن
جعفر دورموش

الصدق والعناية والاستقامة

ما إن تشرق داخل صدورنا عبارة الدعاء التي جرى تعليمها لرسول الله في سورة الإسراء، حتى يُضاء طريقنا ويُنار. إذ جاء فيها:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء:٨٠)

فعند قراءة هذا الدعاء الوارد في كلام الله سبحانه وتعالى نتذكر أدعية النبي عليه الصلاة والسلام والتي من شأنها تثبيتنا على الاستقامة. فهو الذي كان يزين حياته كلها بحركاتها وسكناتها بالأدعية، فيلجأ إلى الله سبحانه وتعالى من الخشية والخوف، ويسأله ما يريده ويتمناه. وهو يعلم أمته أن يطلبوا من الله سبحانه وتعالى حتى أصغر حاجاتهم. ويعلمهم الاعتماد والتوكل عليه، والثقة به، والالتجاء إليه، والرجاء منه ولكن الحذر من غضبه أيضاً. وكذلك تعليق القلب به خشية من سخطه. والاستغفار في اليوم مائة مرة على الأقل... ويُؤمر من يكون هذا حاله بالتضرع بقوله:

"رب! أدخلني مُدخل صدق، وأخرجني مُخرج صدق!".

وسوف أحاول فيما يلي بيان معنى ذلك.

فحسب ما ورد في روح البيان فإن العبارة الواردة في الآية الكريمة مذكورة كمقابلة لمدخل سوء، ومخرج سوء. وهناك من يذهب إلى أن الآية نزلت حين الأمر بالهجرة إلى المدينة وأن المقصود من "الإدخال والإخراج" هو الإدخال إلى المدينة والإخراج من مكة. حيث قيل أن آية:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ (الإسراء:٧٦)

تدل على هذا المعنى.

ولكن حسب الرأي الذي ذهب إليه الأكثرون فإن المقصود في الآية الكريمة هو: "أن يدخله الرب في كل ما يلابسه من مكان أو أمر وأن يخرجه منه".

وعلى ذلك فإن معنى الآية يكون:

"رب! حيثما أدخلتني وأخرجتني فليكن بالصدق مني ولا تجعلني ذا وجهين فإن ذا الوجهين لا يجوز أن يكون أميناً".

وعلى كل الأحوال فإن معنى الدعاء بشكل أوسع هو: رب! ارزقني الصدق عند البدء بكل عمل، والدخول إلى أي مكان. وارزقني الصدق عند الانتهاء من كل عمل قمت به، والخروج بصدق من كل مكان دخلت إليه. ووفقني إلى عمل وقول ترضاه وتتقبله. أسألك الصدق عند الدخول والخروج من واجبات العبودية التي أمرتني بها. وارزقني الصدق والاستقامة في القيام بواجب تبليغ دينك المبين ووفقني في عملي!

وأحطني بعنايتك ورعايتك للانتهاء بنجاح من كل عمل بدأته بصدق. وأرسل إلي معيناً قوياً يتمكن من هزيمة كل من ينصب المكائد في طريق الذين يسعون في سبيل الله. واجعل لي سلطاناً، برهاناً، وقهراً، نصيراً. يقهر الكافرين بتجليات قدرتك، وينصر المؤمنين ويكونون هم الأعلَين! وإننا مؤمنون بأن الحق منصور والباطل مهزوم لا محالة".

ونريد هنا لفت الأنظار و بشكل خاص إلى أن الدعاء الذي يشكل موضوع بحثنا يأتي بعد الآيات المتعلقة بالصلوات الخمس والتهجد.

والآن، إننا مأمورون من خلال النبي ﷺ بمثل هذا الدعاء، والتوقف عند هذه النقطة بحيث يمكننا القول هنا: إن الصدق من أكثر الخصائص المميزة للإنسان المسلم، وينبغي أن تكون ثابتة وغير قابلة للتغير. ينبغي أن يُقرن اسم المسلم بالصدق ويُذكر معه؛ وأن تتميز أعماله وتصرفاته بالصدق. لأن صفات المسلم الأخرى لا تبنى إلا على الصدق، ويصبح لها معنى.

وإن عناية الله ﷻ تتنزل بناءً على الأعمال والأقوال التي تبدأ وتنتهي بالصدق. أو يُنتظر العون من الله ﷻ طالما أن العمل والقول صادق.

تُنال البشارة الواردة في الآية القرآنية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت:٣٠) إلا بالصدق والاستقامة.

لقد ورد في أحد التفسيرات أن البشارة التي يُبشر بها المؤمنون المبينة صفاتهم في الآية المذكورة من قبل الملائكة ستكون حين الموت.

وفُسرت "الاستقامة" هنا أنها تكون بالتحلي بصفات أبي بكر ﷺ في الأقوال والأفعال؛ وبصفة عمر ﷺ في البعد عن النفاق؛ وبصفة عثمان ﷺ في الإخلاص في العمل، وبصفة علي ﷺ في أداء الفرائض.

وقيل أن بشارة الملائكة "لا تخافوا" تكون بعد الموت ومتعلقة بالأعمال السابقة، وأما بشارة "لا تحزنوا" فإنها متعلقة بالأهل والأولاد الذين تركهم خلفه.

والحاصل؛ حتى ينال العبد العناية الإلهية في الأعمال الدنيوية، ويكون من المبشرين في الآخرة ينبغي عليه الالتزام بالاستقامة والصدق في كل زمان ومكان، وفي كل أحواله.

د. اسماعيل لطفي تشكان

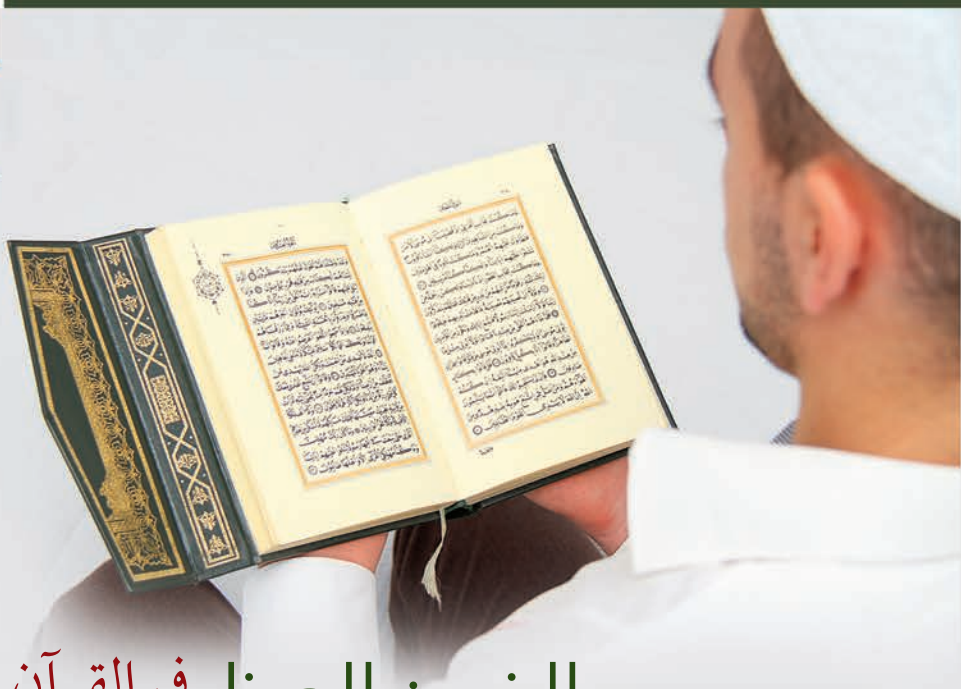

قال الله تعالى:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) (الجاثية: ٣٠)

(وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (غافر: ٩)

الفوز العظيم في القرآن الكريم

إن الوصول إلى سعادة الدارَين من أعظم الأمنيات والأهداف التي يسعى الإنسان الذي يعيش في ساحة العبودية التي تسمى الدنيا، حتى وإن لم يصرِّح بذلك علناً. وأكثر ما يخشاه الإنسان- نتيجةً طبيعيةً للرغبات والأهداف الكبيرة- الفشلُ في الوصول إلى الأهداف المطلوبة، وتحقيق الأمنيات المرجوَّة.

ولا ريب أن هاتَين الحقيقتَين تنطبقان على الذين يعتقدون بالآخرة ويخشون الحساب فيها. أما مَن يرى أن الدار النهائية هي الحياة الدنيا- إن كانوا يؤمنون حقاً بما يقولون- فليس لديهم أي هواجس ولا أمنيات وأهداف بشأن الآخرة، وهؤلاء في مواجهة حتمية مع نتيجة إنكارهم.

فالمسألة هي مسألة المؤمنين الذين يدركون بأنهم في امتحان في هذه الدنيا.

ومع أن النجاح في دنيا العمل يعني الخلاص في دنيا الحساب، إلا أن مراحله وأنواعه ونطاقه وبُعدَه النهائي يظل يشغل جانباً مهماً من الاهتمام والتفكير. ولا يمكن أن يكون نجد مسلماً واعياً يدعي عدم اهتمامه بذلك.

إن أول مرحلة للامتحان الذي نمر به هي خروج الروح في هذه الدنيا على الإيمان، والانتقال إلى الآخرة بحسن الخاتمة، والمرحلة الثانية للامتحان نيلُ الفوز العظيم في الآخرة. ونودُّ هنا تذكيرَ إخواننا بالآيات القرآنية التي تتحدث عن الخلاص العظيم لنجدد معلوماتنا وآمالنا.

١. رضا الله تعالى

إن أعظم نعمة، وأعظم فوز، وأعظم سعادة لنا هو رضا الله تعالى عنا. ونعرف هذه الحقيقة من الآيات القرآنية الآتية:

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة: ١١٩)

٢. نيل رحمة الله

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (الجاثية: ٣٠)

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (غافر: ٩)

٣. غفران الذنوب

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الصف: ١٢)

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٥)

٤. صرف العذاب

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (الأنعام: ١٦)

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الصافات: ٥٩-٦٠)

٥. دخول الجنة

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (البروج: ١١)

٦. الخلود في الجنة

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (النساء: ١٣)

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠)

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الحديد: ١٢)

٧. البشرى الإلهية

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: ٦٤)

النتيجة

نفهم من هذه الآيات القرآنية بأن رحلة الفوز العظيم التي تبدأ بطاعة الله تعالى ورسوله الكريم وتستمر بالابتعاد عن العصيان، والخوف من الله تعالى وتبجيله، والصدق، والعمل الصالح، والجهاد في سبيل العقيدة لنيل رضا الله تعالى ورحمته، سوف تنتهي بدخولى الجنة حيث النعيم الأبدي.

ولا شك أن مثل هذه النتيجة التي سيتم الوصول إليها من غير حساب ولا عقاب سوف تكون أعظم سعادة.

نسأل المولى عز وجل أن يجعلنا جميعاً ممن ينالون الفوز العظيم.

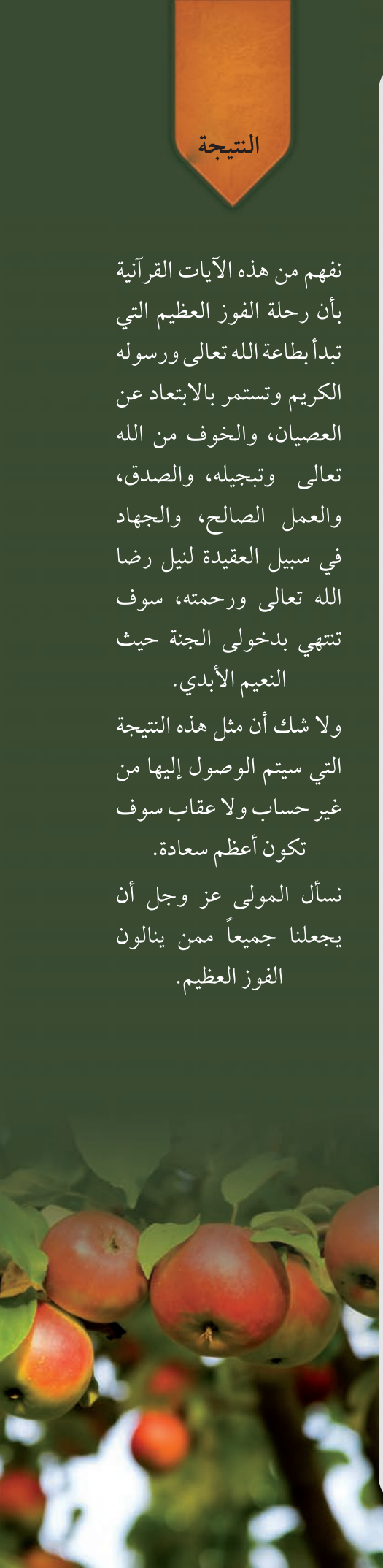

الحياة دين والدين حياة

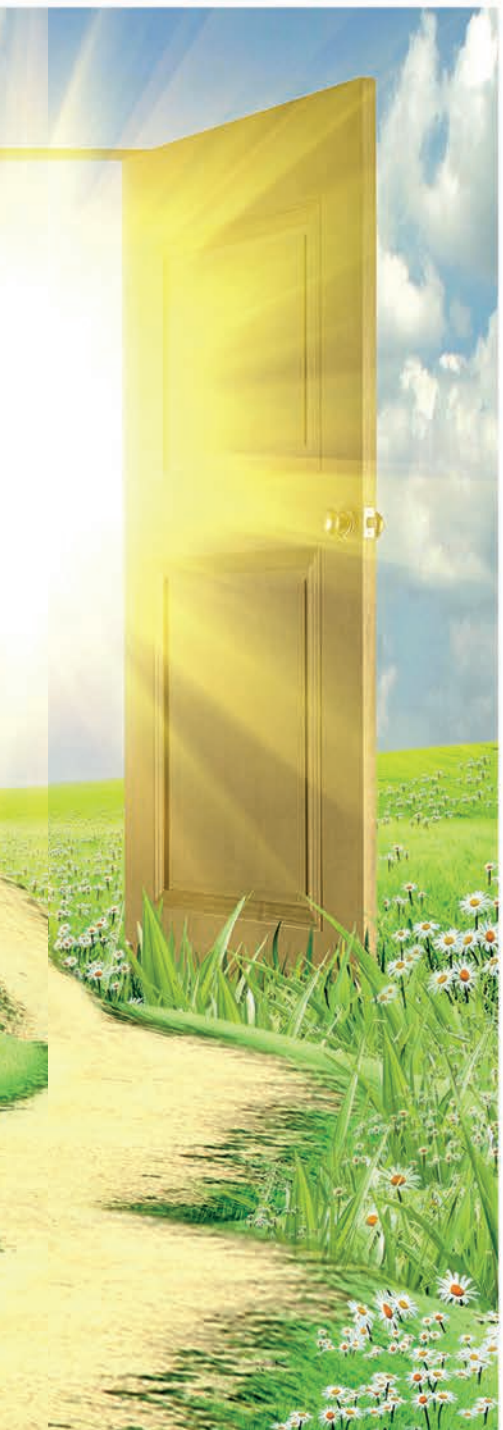

دخلت في نيويورك أحد مساجد الأتراك مصادفةً، وتعرضت لما يشبه صدمةً كهربائية إيجابية. ولما جلست بين يدي الشيخ هناك اشتعلت بين جوانحي مشاعر المحبة! لماذا؟ لم يكن هناك أي نفاق فيما كان يقوله، ويشعر به.

كما قال مولانا جلال الدين الرومي:

"إما أن تبدو كما أنت أو تكون كما تبدو"، لقد كان يعيش ذلك الشيخ حال وحدة الوجود، والمحاسن التي تجلت من تلك الوحدة أيقظت في داخلي إعجاباً وإجلالاً عظيماً.

لقد تذوقت حلاوة الإسلام ولو بمقدار ذرة صغيرة، بعد أن كنت أتذوق ألذ المسكرات فأصبح من المحال العودة إلى حالتي القديمة! وبعد أن شممتُ رائحة الآخرة التي هي أطيب من المسك فلا عودة إلى الدنيا، لأنه مظاهر الزيف والنفاق والاحتيال تتلاشى، والمنافع والمصالح تختفي تماماً.

وبعد أن دخلت الإسلام بست سنوات هاجرت إلى تركيا. قد تسألون لِمَ؟ لأن الدين يُتعلَّم بالتطبيق، ويُطبَّق بالتعلم. فالدين ليس نظام عقيدة فحسب، وإنما حال وجود؛ فالدين يُطبَّق في الحياة.

لم تكن لي أي علاقة بالدين قبل الهداية. وبعد أن اعتنقت الإسلام، رأيت بأن الحياة دين، وأن الدين حياة؛ فلا انفصام بين الحياة والدين أبداً. إن الدين أخلاق، فإن كانت حياتنا خالية من الأخلاق، فإننا نكون بلا دين. وإذا ما طبَّقنا سنة رسول الله فإننا نكون متدينين، إذ قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"فعليكم بسنتي".(ابو داود: ٤٦٠٧)

إن امتناع العبد عن العودة إلى الخالق ﷻ بالعبادة، والعبودية، والعمل، والذكر، والتفكر، وانشراح القلب، لَهوَ جرمٌ عظيم كجرم إنكار ذاته. فعندما يُبعِد الإنسانُ نفسَه عن الدين، فإن أول ما يغترب عنه هو ذاته، لأن الابتعاد عن الدين يعني ابتعاد المرء عن جوهره، وعن طاقاته الروحية، وعن كنزه الداخلي، وعن روحه التي هي السر الإلهي الذي لا ينتهي ولا يتضرر.

وقد سُئِلَت أم المؤمنين عائشة ﵂ عن خُلُقِ النبي عليه الصلاة والسلام، فقالت: كان خلقه القرآن.

إنما الدينُ الإحساسُ؛ هو المحبة، هو البكاء واللوعة، هو الوصول إلى شعور القرب من الله ﷻ، والتلذذ بالغذاء الروحي. الدين هو عيش حال معرفة الله ﷻ كل لحظة. الدين طريق النور؛ نور صفات الله الجميلة وأسمائه الحسنى.

وهذا الطريق مرآة العبودية، طريق تطهير القلب، طريق التضحية. إنه طريق الرسول الأمي الكريم عليه الصلاة والسلام.

هذا الطريق شعاع الإلهام الإلهي.

هذا الطريق هو الصراط المستقيم، والصراط يمثِّل الأخلاق المحمدية.

العلم الحقيقي لا يُنالُ من صفحات الكتب، ولا من قاعات الدروس والمحاضرات، وإنما بعقد مجالس الأنس مع الله ورسوله، يُنالُ بطلب إرشاد الله تعالى، وبرغبة القرب من حبيب الله محمد عليه الصلاة والسلام، وبالسعي للتشبه به، واتباع سننه. ومن هنا كان اتباع ما نعلمه وما تعلمناه أعظم أهمية من العلم أو المعلومة ذاتها. والسير على طريق الحق أهم من الوصول إلى المقصود. إن العلم في الدين الإسلامي علمٌ حيٌّ؛ فهذا العلم المنقول لنا ليس بدرس تاريخي جاف، أو معلومة ركيكة.

لقد مررتُ على منعطف مهم. فأنا لم أهتدِ فقط، وإنما انتقلت من حياة ضالة منحرفة خالية من أي مغزى أو غاية إلى الغنى الأبدي. إنني لم أقم بجولة سياحية من العالم الغربي إلى المشرق؛ وإنما انعتقت من حال اللاوعي التي كنت تائهة فيها وتخلصت منها، لأواجه حقيقة وجودي. إنني استيقظت من نوم الغفلة، من حياة ضيقة فارغة خالية من أي هدف. انتقلت من الإفلاس إلى الإخلاص.

إنني جئت من حال اللاشعور إلى قلب يستمد المحبة من أعظم القلوب. إنني تحولت من حال الحرمان من السجود والتسليم والصراط المستقيم إلى أعظم كنز ألا وهو "التواضع". إنني انتقلت من حياة لا معنى لها إلى "المعراج".

إنني قدمت من صحراء الوجود إلى دين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الذي كان يبكي في قلب الليل حتى تبتل لحيته وحجره.

لقد أكرمنا الله سبحانه وتعالى بشهور رجب وشعبان ورمضان من أجل الهداية. وهذه الأوقات المباركة مصدر الإلهام ومنبع فيض عجيب. ذلك أن الله تعالى يضفي علينا القوة، ويبعث فينا الحيوية، ويغنينا، ويبث بين جوانحنا المشاعر والأحاسيس، ويرفع من شأننا ومقامنا، ويقربنا إليه، وينير قلوبنا، ويشرِّفنا، ويجمِّلنا، ويشفينا، ويبكينا.

لما شرَّفَ رسول الله عليه الصلاة والسلام الكونَ بوجوده المبارك، أهدى إلينا كنزَ المعراج، وكنز السجود، وكنز فاتحة الكتاب، وكنز التهجد، وجمال التسليم، وكنز القدوة الحسنة، وكنز أهل البيت والصحابة الكرام الذين يمثلون أرقى مجتمع إنساني، وأهدى إلينا كنز "الأخلاق الحمدية" التي تعد أجلَّ نعمة ولطف وإحسان من الله تعالى. فمع ليلة المعراج تنزَّلَ على أمة محمد عليه الصلاة والسلام ما لا يحصى من الألطاف والنعم ومظاهر الإحسان الإلهي.

وهذه الألطاف هي نور الإسلام الذي تسترشد به أمة محمد عليه الصلاة والسلام. وهذا النور يسطع ويتلألأ بشكل مهيب، ويظهر جماله الأخَّاذ في ليالي المولد النبوي، والمعراج، والنصف من شعبان، والقدر. وهذه الليالي دعواتٌ من الحق سبحانه وتعالى لأمة محمد عليه الصلاة والسلام إلى السكينة والطمأنينة، والسعادة، والسلامة، والخلاص الأبدي.

فينبغي لكل مؤمن إدراك هذا الإحسان واللطف والنعمة العظيمة. أي ينبغي أن نهتدي لأداء العبادات في هذه الأوقات المباركة بصدق وإخلاص. علينا الاستيقاظ من نوم الغفلة وبذل أقصى جهد لإحياء المعراج الحقيقي في حياتنا.

وينبغي أن نسعى للانتقال من حياة ضالة منحرفة خالية من أي مغزى إلى التواضع الذي يُعد أعظم كنز داخلي فينا. وينبغي أن نحفظ أنفسنا من الشرك، ونلجأ إلى ربنا سبحانه وتعالى بالدعاء والتضرع والسجود. علينا التخلي عن الإرادة الجزئية، وعلينا التخلص من كلِّ حُبٍّ ليس في الله ﷻ. ينبغي لنا الشعور باللذة والمتعة في التسليم والطاعة والعبادة والإنفاق؛ أي ينبغي أن نجدِّد إيماننا، ونبث في أنفسنا الحيوية. يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١٣٦)

أي إن الله تعالى بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ يُكرِّر تحذيره.

إضافة إلى ذلك؛ أكرمنا ربُّنا ﷻ بثلاثة شهور فضيلة. ومن شأن المسلمين الاحتفالُ بنزول القرآن بالصيام، والاحتفال بمحبَّتهم لنبيِّهم بالصلاة عليه. ويحيي المؤمنون المناسبات الروحية بالإكثار من الذكر والعبادة، لأنه لا بد من زيادة العبادة التي هي جوهر العبودية، وبذلك تزداد الألطاف الإلهية في هذه الليالي لتكون كنزاً لا ينضب أبداً. فالجماعة المجتمعة على الطاعة والعبادة تتشرب روح هذه الأوقات وتتنعَّم بعطاء الله وكرمه. إن مراعاة هذه الأوقات والاهتمام بها هي تبجيل لكمال الله تعالى. وهذه الاحتفالات رفعٌ لشأن وجود الإنسان في الدنيا، وإكسابه غنى وتعظيماً. إن الاحتفال يعني رجوع المؤمنين في أكثر أوقات حياتهم قيمة وأهمية إلى الرحيم، وإحياء تلك اللحظات معه؛ أي إن ربنا ﷻ يدعونا في الأشهر الثلاثة إلى التضرع والتبتل إليه، وإلى ذرف الدموع شوقاً إليه، وتمكين محبتنا له، وزيادة اشتياقنا إليه.

لا يجوز أثناء الاحتفال بالأعياد الدينية، وعند إتمام شهر رمضان، ولدى الانتهاء من مناسك الحج، وغير ذلك من المناسبات الدينية، الرقص، ولا عزف الموسيقى، ولا التعري، ولا الإسراف في المأكل والمشرب. وإنما يتم الاحتفال بالمناسبات الدينية

بالإكثار من الذكر والعبادات، لذلك تتضاعف بركة هذه الأيام والليالي. وهناك فكرة خاصة بالإسلام وهي أن أعلى درجات الخشوع والمحبة تكون ضمن النطاق المشروع. إلا أننا لا نستطيع الوصول إلى أقصى حد من السعادة والشبع المعنوي إلا من خلال التسليم التام للإرادة الإلهية. وكلما خضعنا لأوامر الدين، ارتقينا. وإننا نشعر باللذة في قلوبنا بقدر التزامنا بإيمان حقيقي خالص. وكلما أظهرنا المزيد من التسليم، زاد الثواب من الله تعالى؛ أي كلما كانت درجة التربية المعنوية عالية، كانت مشاهدة تجليات الوجود الإلهي أعظم. لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام أحبَّ الخلق إلى الله ﷻ، إذ كان دائماً مع ربه سبحانه وتعالى. وسر التواضع الحقيقي كان يكمن في حال السجود الدائمة لربه.

لا يمكن نيل الأخلاق السامية في الإسلام والوصول إلى هذه المرتبة إلا الذين يتلذذون بخدمة الله تعالى والعبودية له، وطاعة أوامره. وهذه الحال- أي لذة الطاعة- هي الأمر الذي يميز أولياء الله عن الناس العاديين. إذ يقول الله تعالى في بيان ذلك:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر: ٢٢)

إن امتناع العبد عن العودة إلى الخالق بالعبادة، والعبودية، والعمل، والذكر، والتفكر، وانشراح القلب، لَهوَ جرمٌ عظيم كجرم إنكار ذاته. فعندما يُبعِد الإنسانُ نفسَه عن الدين، فإن أول ما يغترب عنه هو ذاته، لأن الابتعاد عن الدين يعني ابتعاد المرء عن جوهره، وعن طاقاته الروحية، وعن كنزه الداخلي، وعن روحه التي هي السر الإلهي الذي لا ينتهي ولا يتضرر. وإهمال التفكر في آلاء الله تعالى يعني الحرمان من نور حكمته. ذلك أننا عندما نكون غارقين في الغفلة، والشبهة، والإنكار، والجهل يخفت نور أرواحنا وبالتالي ينقطع عن جوهرنا، وطهارتنا، وإدراكنا، وعن ملكة الارتقاء فينا، ونكون بذلك قد رفضنا الخلاص الأبدي، والشفاء الروحي، وفرص التحلي بصفات الكمال الإلهي، والسعادة الأبدية،

> إنما الدينُ الإحساسُ؛ هو المحبة، هو البكاء واللوعة، هو الوصول إلى شعور القرب من الله تعالى، والتلذذ بالغذاء الروحي. الدين هو عيش حال معرفة الله تعالى كل لحظة. الدين طريق النور؛ نور صفات الله الجميلة وأسمائه الحسنى.

وأعلى مظاهر العشق والمحبة، ورائحة الآخرة التي تُشَم من مسافة آلاف السنين، والألطاف والبركات والمكرمات اللامتناهية التي تتحقق بمخاطبة صاحب الكمال المطلق سبحانه وتعالى. وكذلك فإننا نفقد مفاهيم الزهد، والخلوة، والاعتكاف، والتهجد في الليل، وكنز السجود اللامتناهي، والمعراج الذي هو طاقة الصعود الكامنة في كل روح، والإحرام الذي هو حال الحجيج، والجهاد الذي يعبر عن مجاهدة النفس. وبذلك نكون قد خسرنا وأضعنا من بين أيدينا كنز نيل مرضاة رب العالمين والقرب مع المبعوث رحمةً للعالمين. وهذا الخسران يعني بقاء بذور المحبة في حياتنا مستورة إلى الأبد، والعجز عن الوصول إلى مستوى الإنسانية.

ينبغي أن ينشغل جميع البشر بما فيهم أمة محمد بالارتقاء بأنفسهم لاستعادة القيمة الأصلية لإنسانيتهم.

فلا مناص لهم من إخضاع أنفسهم للتدقيق والتمحيص وفهمها. ينبغي أن يوجِّهوا كلَّ اهتمامهم لمسألة خلافة الله في الأرض، وإمكانية التحول إلى وسيلة لمراده فيها.

(١)
فصاحته، وبلاغته، ونظمه

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوْا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِيْنَ﴾ (البقرة، ٢٣)

الدكتور مراد كايا

يترك القرآن الكريم الإنسان عاجزاً عن الإتيان بما يشابهه، في الكثير من جوانبه من نظم وفصاحة وبلاغة وتأثير على القلوب إلى جانب ميزة وضع القوانين (التشريع) وإخباره بالغيب.

لقد تحدّى الله تعالى المشركين لمّا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم، حيث طلب منهم الاستعانة بكل ما شاؤوا من المخلوقات والإتيان بكتاب مماثل للقرآن الكريم، وفي حال عجزوا عن ذلك فعشر سور منه وإلاّ فواحدة، وفي آخر المطاف فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فبما يشبهه:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوْا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِيْنَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ﴾ (البقرة، ٢٣-٢٤)

وعبارة "ولن تفعلوا" الأخيرة هي من اليقين والقطعية حيث لا يمكن ظهور حكم كهذا إلا من ذاتٍ لا يحدُّ علمها وقدرتها كاملة لا يشوبها أيُّ نقص؛ أي من الله تعالى. كما أنه في الحقيقة ليس بإمكان أيِّ أحدٍ التنبؤ بالغيب واستخدام عبارات تفيد القطع، ولا يمكن إطلاق حكم من البشر يتعلق بالمستقبل المجهول والمغيب على هذا النحو من البتِّ.

إن النصوص الإلهية المظهرة عجزهم بلغت منهم كل مبلغ فأثار ذلك حميتهم وزاد من إصرارهم، لكنهم لم يتمكنوا من إجابته بأي شيء. فتحدثت هذه الآية عن عجزهم وتناقلته الأفواه عبر القرون والأحقاب حتى فاضت به الآفاق، فسجلت ضعفهم وكأنها ختمت على ألسنتهم. (مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، بيروت ٢٠٠٣، ص ١٤٢)

ثم إن المشركين لما عجزوا عن مقابلة تحدي القرآن لهم قاموا بدلاً عن ذلك بتصرفات ومعاملة عدوانية كتكذيبه والتحريض ضده والاحتقار والافتراء. ولكنهم بقولهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُوْنَ﴾ (فصلت، ٢٦)

مهما كانوا منكرين ولكنهم في الحقيقة أبدوا انهزامهم الكلي أمام القدرة الإلهية. وانهزامهم هذا لا يزال حتى يومنا هذا.

فصاحته، وبلاغته، ونظمه

ليس القرآن الكريم بشعر ولا نثر، بل هو أثر لا نظير له في أسلوب يضم مزايا في بنيته. وله روعة لا توجد في الشعر والموسيقا، فما مِن رتابة تنجم عن قراءته أو الاستماع إليه على الدوام، حيث تأخذ كل واحدة من حواس الإنسان نصيبها منه بدرجة متساوية. (البروفسور. د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، ص١٠٢)

«إن القرآن الكريم يتناول من الكلمات المترادفة أدقّها دلالة، وأتمها تصويراً بالنسبة إلى نظائرها. فإذا استنفدت اللغة طاقتها ولا تزال بقية من المعنى أو الصورة شاردة

وراء حدود اللغة، اتسعت لها الكلمة القرآنية وشملتها عن طريق ما تتسم به من جرس ووزن وإيقاع. ولن تعثر مهما حاولت على أي ضابط لهذا الجرس والوزن والإيقاع، مؤملاً أن تطبقه في كلامك وتعبيرك. إنما هو الإحساس الذي يفيض به شعور القارىء عند تلاوته لهذه الكلمات أو سماعه لها مسبوكة مع بعضها، قائمة ضمن هيكلها القرآني الفريد»

يقول ابن عطية: «والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام» (ابن عطية، المحرر الوجيز، بيروت، ١٤١٣، ١، ٥٢)

إن القرآن الكريم إلى جانب كونه متفرداً بأسلوب يختص به مختلف عن أنواع الأدب المعروفة فإنه يضم جميع أنواع الأدب هذه على النحو الأفضل. ويفيد مواضيع كالقصة والموعظة والتاريخ والتشريع والجدل والمناظرة والآخرة والجنة والنار وآيات الترغيب والترهيب ضمن أسلوب خاص متكامل في أعلى المعاني وفي أعلى مستوى من البلاغة والفصاحة.

يؤثر القرآن الكريم على القلوب: ورد أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: «لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً» ثم انصرفوا... حتى إذا كانت الليلة الثانية والثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: «لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود»، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرّقوا. (ابن هشام، ١، ٣٣٧ـ٣٣٨؛ تاريخ الطبري، ٢، ٢١٨ـ٢١٩)

وذكر أبو عبيدة أنّ أعرابيًّا سمع رجلا يقرأ: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (الحجر، ٩٤) فسجد وقال: «سجدتُ لفصاحته» وكان موضع التّأثير في هذه الْجملة هو كلمة اصدع في إبانتها عن الدّعوة والْجهر بها والشّجاعة فيها، وكلمة بما تؤمر في إيجازها وجمعها.

وسمع آخر رجلًا يقرأ:

﴿**فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا**﴾ (يوسف، ٨٠)

فقال: «أشهد أنّ مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الْكلام» (ابن عاشور، ١، ١٠٧)

وإن الأعراب كانوا البالغين القمّة بين الناس في البلاغة والفصاحة. ثم إن القرآن الكريم في الوقت ذاته يخاطب الناس أجمعين على اختلاف أمكنتهم وأزمنتهم ومستوياتهم العلمية بما يتناسب ومستواهم العلمي، فقد تكون آية ما متعددة المفاهيم بحيث يمكن أن تفهمها الأجيال الأولى على حسب أوضاعها والأجيال الآتية بعدها تفهمها بما وصلت إليه من المستويات العلمية.

يقول مصطفى صادق الرافعي الأديب الكبير:

«من معجزاتِ القرآن الكريم أنه يدَّخرُ في الألفاظِ المعروفة في كل زمنٍ، حقائقَ غيرَ معروفةٍ لكلِّ زمنٍ، فيجليها لوقتها حين يضجُّ الزمانُ العلميُّ في متاهتِه وحيرتِه»

(وحي القلم، الكويت، ٢، ٦٦)

قُوا أهليكم من النار

البروفسور: عمر تشليك

ثمة كثير من الأخبار حول قلق الأنبياء والرسل على ذريَّاتهم، وتضرعهم الدائم إلى الله تعالى من أجل حفظهم ورعايتهم من السوء والأخطار. ومثال ذلك إبراهيم عليه السلام الذي كان يدعو ربه ﷻ، فيقول:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ...﴾ (البقرة: ١٢٨)

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (ابراهيم: ٤٠)

ويأمر الله تعالى عباده المسلمين بالأدعية التي تتضمن معنى المحبة، والخشية، والاهتمام الشديد بذرياتهم، إذ يقول في هذا الشأن:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤)

فعلى الإنسان ألا يكتفي بالعمل على النجاة بنفسه فقط من عذاب الله تعالى، وإنما هو مسؤول في الوقت نفسه- على قدر استطاعته- عن تربية أفراد أسرته تربيةً تجعلهم من العباد الذين يحبهم الله تعالى ويرضى عنهم. وعلى الإنسان عدم الاكتفاء بتلبية احتياجات أبنائه الدنيوية من مأكل، وملبس، ومشرب، وتأمين وسائل السلامة والرفاهية؛ وإنما ينبغي أن يكون تفكيره منصباً بشكل أكبر على كيفية حفظهم وحمايتهم من أن يتحولوا إلى حطب لنار جهنم في الآخرة. وقد أشار ربنا ﷻ إلى هذه الحقيقة في آية قرآنية فيها تحذير شديد في هذا الشأن، إذ قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ (التحريم: ٦)

لذلك ينبغي للآباء والأمهات الحرص على تربية أبنائهم. ونحن بدورنا نحاول أن نبيِّن طبيعة التربية التي يجب أن يتلقاها الطفل داخل الأسرة على شكل مسائل مترابطة، لعلَّنا بذلك نقدم مساهمةً- ولو كانت بسيطة- في لفت انتباه الآباء والأمهات إلى المسؤولية المترتبة عليهم في هذا الشأن، وتوجيههم على القيام بما هو مطلوب:

يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: "ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته"

(البخاري: الأحكام، ١؛ مسلم: الإمارة، ٢٠)

١. التربية العقائدية

إن جوهر الأمر كله هو عقيدة سليمة وصحيحة موافقة للإسلام، والإيمان بكل ما يجب الإيمان به، ثم الإقرار بكل ذلك قطعاً والعمل بما يقتضيه. فالنبي ﷺ كان عندما يبدأ أحدٌ من أطفال بني عبد المطلب بالكلام، يُقرِؤه ويعلِّمه قول الله تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾

(الإسراء: ١١١)

وقد قال النبي ﷺ في حديث شريف:

"افتحوا على صبيانكم أول كلمة بـ: لا إله إلا الله".

(البيهقي: شعب الإيمان، ٦، ٣٩٨)

ولذلك ينبغي لنا أن نتحدث لأبنائنا دائماً سواء في مجالسنا الأسرية، أو على موائد الطعام، أو في أي مكان آخر عن عظمة الله، وعن خلقه للكائنات، وعن الهواء الذي نتنفسه، وعن كل ما نتمتع به من أصناف الطعام والشراب وغيرها من النعم الكثيرة التي لا تُعد ولا تحصى، لنكون عوناً لهم في ترسيخ إيمان قوي بالله تعالى في قلوبهم. وينبغي لنا أن نذكِّرهم دائماً بأن الرسول الأكرم سيدنا محمد ﷺ هو رسول الله، وأن هذا الأمر يقتضي بأن تكون محبة ربنا سبحانه وتعالى ومحبة نبيه عليه الصلاة والسلام في قلوبنا أقوى من محبة أي شيءٍ آخر، لأنه لا يصدر عن القلب المتشرِّب محبةَ الله ورسوله إلا الخير والعمل الصالح.

٢. تعليم العبادة

إن تعليم العبادة الصحيحة يأتي بعد التربية العقائدية والإيمانية الصحيحة. لقد أكد ربنا ﷻ على أهمية مسألة تعويد الصغار على الصلاة، فقد قال المولى ﷻ في كتابه الكريم لافتاً الانتباه إلى ضرورة إيلاء اهتمام أكبر للصلاة سواء من الأفراد، أو الأسرة، أو المجتمع:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه: ١٣٢)

وكان النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية يذهب إلى باب بيت ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها ويدعوها وزوجها إلى الصلاة..

(البخاري: التهجد، ٥؛ مسلم: المسافرين، ٢٠٦)

ويقول رسول الله ﷺ:

"مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرِّقُوا بينهم في المضاجع". (أبو داوود: الصلاة، ٢٦)

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يولي أهمية كبيرة لتعليم الأولاد القرآن الكريم، حيث قال:

"مَن علَّمَ ابنه القرآن نظراً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومن علَّمَه إياه ظاهراً بعثه الله يوم القيامة على صورة القمر ليلة البدر، ويقال لابنه: اقرأ. فكلما قرأ آية رفع الله عز وجل الأب بها درجة، حتى ينتهي إلى آخر ما معه من القرآن".

(الهيثمي: ٧، ١٦٥ – ١٦٦)

٣. تربية وتعليم اجتناب المعاصي

كان النبي ﷺ عندما يحذر أم المؤمنين عائشة ﷺ من المعاصي يستخدم هذه العبارة الملفتة للانتباه:

"يا عائشة، إياكِ ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً." (ابن ماجه: الزهد، ٢٩؛ الدارمي: الرقاق، ١٧)

٤. تعليم وتربية الإنفاق

علينا تعويد أطفالنا على مساعدة المحتاجين، وعلى التضحية بقدر استطاعتهم، مثلما نعوِّدهم على الصلاة في سِنٍّ مبكرة. وينبغي أن يتذوق أطفالنا وفلذات أكبادنا وهم في مرحلة الطفولة والشباب لذةَ مساعدة الآخرين ودعائهم لهم، وأن يرغبوا بتذوق تلك اللذة والمتعة المعنوية أكثر من رغبتهم بتذوق طعام شهي. وينبغي أن يعيشوا السلام والطمأنينة المعنوية عندما يدعو المحتاج لهم، إذ لو نشأ الأطفال وكبروا وهم محرومون من هذه المتع والملذات المعنوية السامية، فمن العسير أن يتلقوا هذه التربية والتعليم في السنين المتقدمة من أعمارهم، فيُحرمون من هذا العالم الروحاني الفسيح، ويصبح هؤلاء في حال يصعب عليهم فيها فهمُ الإسلام والعيش وِفْقَه. لهذا فإن الصالحين من الناس والعلماء وأهل الحق يلقِّنون أولادهم، ويعلمونهم الإنفاق في صغرهم مثلما يعلمونهم الإيمان والصلاة، ويعوِّدون أولئك الصغار ذوي القلوب النقية الطاهـرة على محبة المحتاجين وتقديم العون لهم.

يقول شيخنا عثمان نوري طوبَّاش:

"لقد كان والدي موسى أفندي رحمه الله يأخذنا معه ونحن أطفال صغار إلى المساجد، ويزوِّدنا بمعلومات عن تلك المساجد، وكان يضع بعضاً من النقود في أيدينا ويطلب منا أن نعطيها لأصحاب الحاجة هناك. وكانت والدتي رحمها الله تُعِدُّ في البيت أطعمة لذيذة، ثم تغلفها وتطلب منا أخذها إلى المرضى من جيراننا. وكنا نأخذ ذلك الطعام ونعطيه للمريض فنسمع دعاءه لنا ونُسَرُّ سروراً كبيراً. حتى إننا كنا نرغب بأخذ الطعام إليهم مرةً أخرى لنسمع الدعاء ونعيش تلك السعادة الروحية."

٥. التربية على الحشمة والحجاب

إن التستر صفة خاصة بالإنسان، وأمر ديني عظيم. ولقد تعرض الناس في يومنا هذا إلى مصيبة كبيرة في هذه المسألة، إذ إن أشكال الألبسة التي لا تناسب الفطرة الإنسانية ألبتة منتشرة على نطاق واسع. لذلك علينا تعليم أطفالنا في عمر مبكر على الحشمة والتستر داخل الأسرة سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً. ومما يدعو للأسف في أيامنا هذه أن الكثير من الآباء والأمهات قد انحرفوا نحو تفكير خاطئ في هذه المسألة بقولهم:

"إن الأولاد ما زالوا صغاراً، وسوف يبدؤون بارتداء الحجاب والثياب الطويلة عندما يكبرون".

ومثل هذا التفكير بعيد عن الصواب، فالطفل عندما يتلقى هذه التربية وهو صغير السن، فإنه عند البلوغ سوف يرتدي الحجاب الذي أمر به الإسلام دون أي جبر أو إكراه. ونورد في هذا الشأن حادثة ملفتة للانتباه وقعت في زمن النبي ﷺ: دخل رسول الله ﷺ يوماً على عائشة ﷺ، وعندها أختها أسماء ﷺ، وعليها ثياب سابغة واسعة الأكمة، فلما نظر إليها النبي ﷺ قام فخرج. فقالت لها عائشة: تنحي، فقد رأى منك رسول الله ﷺ أمراً كرهه. فتنحت فدخل رسول الله ﷺ فسألته عائشة: لِمَ قام؟ فقال: "ألم تري إلى هناتها إنه ليس للمرأة المسلمة أن يبدو منها إلا هكذا"، وأخذ كميه فغطى بهما ظهر كفيه حتى لم يبد من كفيه إلا أصابعه، ثم نصب كفيه على صدغيه حتى لم يبد إلا وجهه. (الهيثمي: ٥، ١٣٧)

٦. القلق بشأن المستقبل والاستعداد للآخرة

يسود بين الآباء والأمهات في عصرنا الحالي حال من القلق المفرط والعجيب حول مستقبل الأولاد. وتدور تساؤلات جمة في تفكيرهم، مثل: ماذا سيكون

مستقبل أولادنا؟ ماذا سيأكلون ويشربون؟ وأين سوف يعملون؟ وهل سيكونون عمالاً أم مديرين؟ إلا أننا لا نجد بين كل هذه التساؤلات تساؤلاً حول الحياة الأبدية التي سينتقل إليها هؤلاء الأطفال يوماً ما. مع أن المستقبل الأساسي هو الآخرة، والعيش الحقيقي هو عيش الآخرة؛ فينبغي أن يكون القلق الأساسي بشأن الآخرة. والغاية الأولى لإرسال الأنبياء وإنزال الكتب هي إخبار الناس بهذه الحقيقة.

فتعالوا معنا نتعلم كيف ينبغي تربية الأولاد في هذا الشأن مِن المُعلِّم الحقيقي ألا وهو النبي ﷺ:

كانت فاطمة بنت النبي ﷺ من أحب أهله إليه. وإنها جرت بالرحى حتى أثَّرَ في يدها، وأستقت بالقِربة حتى أثَّر في نحرِها، وكَنَسَتِ البيت حتى اغبرت ثيابها. فأتى النبي ﷺ خدَم، فطلبت من أبيها خادماً. فقال النبي ﷺ لها: "اتقي الله يا فاطمة، وأدِّي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك، فإذا أخذتِ مضجعك فسبحي ثلاثاً وثلاثين، واحمدي ثلاثاً وثلاثين، وكبِّري أربعاً وثلاثين، فتلك مئة فهي خير لك من خادم". ولم يعطها خادماً.

(أبو داوود: الخراج، ١٩ – ٢٠/ ٢٩٨٨؛ وانظر أيضاً البخاري: الخمس، ٦)

٧. أن يكون الأب والأم مثلاً وقدوة

نادت الكنغر الأم وليدها قائلة: يا بني لمَ تسير قفزاً هكذا؟ سِرْ كما ينبغي! فأجاب الكنغر الصغير أمه قائلاً: "يا أمي العزيزة، أنا لم أركِ إلا تمشين هكذا. وقد تعلمت مشيتي منكِ، فلو أنكِ كنت تمشين بشكل سوي، لسرت أنا أيضاً مثلك".

والحق أن هذه الأقصوصة تقدم لنا سائر التفاصيل عن المعنى المقصود من أن يكون الآباء والأمهات داخل الأسرة قدوةً لأبنائهم في مسائل آداب السلوك، والفضيلة، والأخلاق الحميدة، وأعمال الخير. ولا حاجة أبداً لمزيد من الكلام.ولهذا فإن الآباء والأمهات يتحملون مسؤولية كبيرة في مسألة تربية أفراد الأسرة من الناحية الدينية. وهذه المسألة في غاية الدقة وغير قابلة للإهمال أو التساهل والتقصير فيها. لأنه ثمة كثير من العوامل والمؤثرات الخارجية التي قد تُزيل الشعور الديني لا سيما لدى الشباب، وتُثير الأهواء والمشاعر النفسانية فيهم، فتُبعِدهم عن الروحانية وتحوِّلهم إلى خدم وعبيد لأهواء النفس... إن للمدرسة، والشارع، والمحيط الاجتماعي من هذه الناحية طبيعةً تحمِلُ الضرر أكثر من النفع. وأما وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة لا سيما (الإنترنت) فإن لها تأثيرات هدامة لا يمكن حصرها وعدها. يتضح من كل ذلك مدى ضرورة بذل الجهود في سبيل التربية الدينية لأبنائنا لمواجهة تلك العوامل السلبية.

كره الذنب والرحمة بالمذنب

إن مشاعر الرحمة والمحبة تعظم في فؤاد الإنسان كلما ترقى إيمانه في معارج الكمال، وذلك يقتضي إكرام المحرومين والضعفاء والمحتاجين بأسلوب الرأفة الذي يتَّبعه الطبيب الحاذق حينما يعالج مرضاه.

فالطبيب لا يغضب على مريضه حتى لو كان المرض لتقصير من المريض، ويعلم أنه مكلَّف بتقديم العلاج لمريضه، وأولياء الله- الذين يحيون بهذه الأخلاق- لا ينظرون إلى ذنب المذنب، بل إلى جوهر الإنسانية الذي أودعه الله في ذلك الإنسان، ويرونه كالطير مكسور الجناح، فيسعون إلى علاجه ببلسم الإرشاد والإصلاح.

علي رضا تمل

العدل أساس المُلك

العدالة تعني المساواة. ولا تتحقق إلا إذا طبقت على الجميع بشكل متساوٍ. ويُعد الميزان رمز العدالة، فعندما يضبط الميزان حسب وضع كل إنسان ينتج عنه الظلم. وعاقبة الظلم وخيمة. وكما قال ضياء باشا:

إذا رأيت أن سارق بضعة قروش يحكم عليه بالأشغال الشاقة، وسارق الملايين يحمل على الأكتاف فاعلم أن المجتمع منهار.

عندما أمر النبي عليه الصلاة والسلام وهو القدوة والمثل الأعلى للإنسانية بأجمعها، عندما أمر بالعدالة بدأ بتطبيقها على نفسه، واتبعه في ذلك الخلفاء الراشدون من بعده، وصاروا نماذج ومثلاً في مسألة رعاية حقوق الناس.

وهناك ممارسات وأمثلة لا تُعد ولا تُحصى في هذا المجال.

روت أم المؤمنين السيدة عائشة ﷺ أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت يوم فتح مكة، وكرهوا أن يُقام عليها الحد، وتدارسوا فيما بينهم حول من يكلم فيها رسول الله ﷺ. فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله عليه الصلاة والسلام. فجاء أسامة بالمرأة إلى رسول الله وكلمه فيها وشفع لها عنده. فغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام وتغير لونه، وقال:

"أتشفع في حد من حدود الله؟"

فقال أسامة نادماً: استغفر لي يا رسول الله. ثم قام رسول الله ﷺ فحمد وأثنى عليه ثم قال:

"إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" (راوه البخاري ومسلم)

العدالة تعني المساواة. ولا تتحقق إلا إذا طبقت على الجميع بشكل متساوٍ. ويُعد الميزان رمز العدالة، فعندما يضبط الميزان حسب وضع كل إنسان ينتج عنه الظلم. وعاقبة الظلم وخيمة. وكما قال ضياء باشا:

إذا رأيت أن سارق بضعة قروش يحكم عليه بالأشغال الشاقة، وسارق الملايين يحمل على الأكتاف فاعلم أن المجتمع منهار.

فإذا جعلت القوانين كما قال بلزاك مثل خيوط العنكبوت يخرقها الذباب الكبير ويعلق بها الصغير.

فإن الذباب في نهاية المطاف سوف يعاني أيضاً من المصاعب وستقع في المشاكل. فإذا لم يطبق الأقوياء القوانين ولم يلتزموا بها فكيف سيجدون حلولاً للمشكلات التي تحدث فيما بينهم؟

فالعدالة ضرورية للجميع. فكل إنسان بحاجة إلى الحماية في مرحلة أو نقطة ما. فمن الخطأ الفادح الثقة بالذات واعتبار الآخرين ضعفاء. فكما أن الفيل قوي، فإن للبعوضة قوة أيضاً. ونجد في كثير من الأحيان أن الأقوياء من الناس يقفون عاجزين أمام بعوضة صغيرة.

إن القوة الهوجاء وغير الخاضعة للسيطرة ظالمة، وتشكل خطراً على صاحبها.

وإن الحق والعدالة فوق كل أشكال القوة والسلطة. فالأصل هو قوة الحق، وليس حق القوة.

فقد قال أبو بكر الصديق ﷺ في أول خطبة له عندما بويع خليفة للمسلمين:

"الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله".

ومن المواقف العظماء العظيمة أنَّ أبا بكر ﷺ لما استخلف على المسلمين أصبح في اليوم الثاني غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، وكان رضي الله عنه تاجراً. فلقيه عمر بن الخطاب ﷺ فقال له:

أين تريد يا خليفة رسول الله؟

فقال أبو بكر ﷺ: السوق.

فقال عمر ﷺ: وماذا تصنع فيها وقد وُليت أمر المسلمين؟

قال أبو بكر ﷺ: فمن أين أطعم عيالي؟ فإن أهملت عيالي أهملت المسلمين جميعاً.

فطلب منه عمر ﷺ الذهاب إلى المسجد للتباحث معه في الأمر.

إذ إنَّه من الضروري أن يتفرغ أبو بكر ﷺ لشؤون الأمة ويرعى مصالحهم. فاجتمع في المسجد أبو بكر وعمر ﷺ، ومسؤول بيت المال أبو عبيدة، وكبار الصحابة ﷺ. وعرض عمر ﷺ أن يُفرض لأبي بكر مرتب من بيت المال يكفيه ويكفي عياله، وقوبل عرضه بالقبول.

ويمكن تقديم أمثلة كثيرة عن حساسية الخلفاء حول هذه المسألة. إلا أن الأمر المهم هو أن يصبح من هم في مواقع المسؤولية وإدارة شؤون الناس قدوة ومثلاً لغيرهم في رعاية الحقوق وحمايتها.

ومن الأمثلة التي تحمل العبرة وتستدعي التأمُّل والاقتداء بها موقف علي بن أبي طالب ﷺ من علي بن أبي رافع مسؤول المال. حيث كانت ابنة أمير المؤمنين زينب قد طلبت من أبي رافع أن يعيرها عقد لؤلؤ من بيت المال لتتزين به في أيام العيد الثلاثة، ولبى أبو رافع طلبها وأعارها العقد، ولما بلغ الأمر علياً ﷺ غضب من أبي رافع وقال له: أتنجيني من عذاب الله يوم القيامة، وتحمل عني ذنوبي؟

وكذلك طلب عمر بن عبد العزيز من امرأته أن تعيد السوار الذي في يدها إلى بيت مال المسلمين، وإلا فالفراق بينهما. فهذه المواقف أمثالٌ وأسسٌ والاقتداء بها يسمو بالمجتمع ويحقق فيه الأمن والسلام والاستقرار والطمأنينة. وأما الأفعال والمواقف المجحفة والبعيدة عن العدالة فتفتح الباب أمام انهيار المجتمع وقيمه. لذا عُدت العدالة أساس الملك.

الأستاذ: عبد الله سَرْت

حديث عن جانب من حياة الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو

روح تلك المؤلفات

لقد خلَّف الشيخ سامي أفندي أثرَين عظيمَين؛ أولهما: كتبه التي تُرجِمت إلى لغات مختلفة، والتي سوف تكون بإذن الله تعالى علماً نافعاً مستمراً إلى يوم القيامة، ومنارة إرشاد للأجيال القادمة، وإحياءً لدين الله. والآخر: الجماعة النقية التي أنشأها وربَّاها.

في الواقع لقد عاش أستاذنا الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو في هذه الدنيا بصورة حسنة وجميلة، وجميع المؤمنين يحسنون الظن به، وقد خلف وراءه أشياءً رائعة. وأنا العبد الفقير واحد من إخوانكم الذين تعاملوا بشكل مباشر مع كتابات أستاذنا الجليل الرائعة. وإن لساني ليلهج بالشكر على أن كنتُ ممن تفضل الله عليهم بنعمة القيام بعمل خير- لربما يشكل أعظم وسيلة شكر في حياتي- ألا وهو تحويل كتابات واحد من أهل الله إلى الأحرف اللاتينية لا سيما تلك المخطوطة بالأحرف الإسلامية، ثم نقلها إلى العالم بالإمكانات التي أتيحت لنا... فالحمد لله تعالى.

إلا أني أريد أن أعرض لكم كيفية كتابة هذه الكتب، والخط الذي سارت عليه حتى وصلت إلى هذه الحالة. لم يسعَ أستاذنا الشيخ سامي أفندي رحمه الله للكتابة من أجل تأليف كتابٍ ما بعينه، إذ إنه قام في البدء بتدوين مقتطفات من آيات القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وحياة الصحابة الكرام، ومشاهد من حياة أهل الله الذين انحدروا من ذاك النهج دون أن ينحرفوا عنه قيد أنملة والتي ستكون نماذج تطبيقية وعملية لنا، ودوَّن كل ذلك على شكل ملاحظات من أجل نقلها للناس الذين أخذوا بيده في ذلك الوقت. ثم إن تلك الملاحظات التي كتبت على شكل صفحات منفردة تراكمت فيما بعد لتتحول إلى دفاتر، ثم نُقلت هذه إلى الأحرف اللاتينية ونُسِّقَت وطُبِعَت على شكل الكتب التي تقرؤونها اليوم، وتأسس دار الأرقم برغبته، ثم وضعنا نصب أعيننا إمكانية إيصال كتبنا وأعمالنا إلى بلدان أخرى مثل دمشق، وحلب، وجنوب أفريقيا،

فظهرت دار النشر. وما يشكل العمود الفقري لهذه الدار إنما هو هذه الدفاتر التي كتبها الشيخ سامي أفندي بالأحرف الإسلامية في أوقات الأسحار وهو على وضوء.

لقد كتبت مختلف الكتب التي نشرناها اليوم والتي يبلغ عددها ثمانية عشر كتاباً كلها بمثل هذا الإخلاص، والعزم، والجدية. وفي هذا المقام يحضرنا على الفور الحديث النبوي الشريف الذي قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام:

"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

[رواه البخاري ومسلم]

لقد وهب الله ﷻ الأستاذ سامي أفندي هذه المكرمات الثلاثة كلها. والحق أن الأستاذ سامي أفندي لم يأخذ شيئاً من الميراث التي تركته أسرته لأنه قرر كسب قوته بعمل يده، والتزم بذلك حيث كسب قوته بعمل يده، ولم يجمع ثروة دنيوية قط. فكيف لإنسان مثل هذا أن يخلف وارءه صدقة جارية؟ إذا نظرنا اليوم فإننا نجد بأن هناك أوقافاً باسمه منتشرة في الأناضول "أوقاف محمود سامي أفندي"، وكذلك هناك مساجد منتشرة باسم محمود سامي. أي إن هناك اليوم بئر ماء لسامي أفندي تسقي في أفريقيا، حيث أبناء أفريقيا الذين يعانون العطش اليوم يشربون من خير ما فعله ذاك الإنسان الذي يُعد من أهل الله. إذاً؛ أكرمه الله تعالى بالصدقة الجارية، وبإذن الله تعالى فإن هذه الآثار سوف تبقى قائمة للأجيال القادمة.

والأهم من ذلك الجماعة الفريدة التي خلَّفها وراءه. لقد ربى سامي أفندي أناساً سوف يحملون الأمانة المعنوية والروحية المتوارثة من النبي ﷺ ويسيرون بها على نهجه. وأحد هؤلاء موسى أفندي، فقد تصدى لحمل هذه الأمانة على أحسن وجه. إذ قام موسى أفندي بدور عظيم الأهمية في مسألة نشر كتب السيد سامي أفندي. حتى إنه عند تأسيس دار النشر أرسل في طلبي ذات يوم وقال: "يا سيد عبد الله، سوف أجعل لكم كل سنة مبلغاً خاصاً بشأن هذه الكتب. وإن شاء الله سوف تقوم مقابل هذا المبلغ المخصص بإيصال الكتاب إلى المدارس، والمعاهد، والمنازل، وإلى أولاد أمة محمد ﷺ جميعاً".

لقد كان سامي أفندي يقرأ كل الدفاتر التي يكتبها على أهل بيته قبل كل شيء، فكانت أولى صُحبه في بيته. وقد نقل أخونا محمود كيراز أوغلو أن ذلك البيت كان مثل دار الأرقم. كان ذلك البيت وكأنه مركز مخبري للعالم الخارجي، حيث يحتوي على المحبة، والشفقة، والرأفة، والتعليم، والتربية المعنوية.

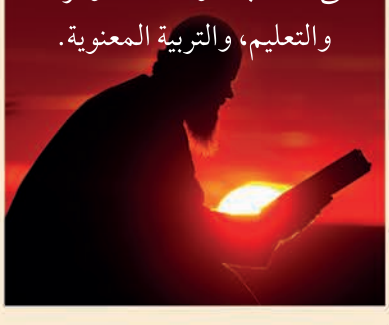

روح تلك المؤلفات

على ماذا كانت تحتوي تلك المؤلفات؟ في الواقع، إن كل مؤلَّف يتطلب عرضاً وتقديماً خاصاً به. فمثلاً يمكن إجراء جلسة خاصة بشأن كل من تناول حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ويوسف عليه السلام. ولكن الأمر الذي سنتعرض له بشأن هذه المؤلفات هو: ينبغي أن نفهم جيداً الخط التصوفي الذي مثله سامي أفندي بأعماله ومؤلفاته. فماذا يوجد هنا؟ نقول توجد تربية معنوية وروحية مرتكزة بشكل تام على القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام. إذ عندما ننظر إلى كتاب (سيدنا يوسف عليه السلام)، نجد بأنه تفسير لسورة يوسف، فكأنه عبارة عن كتاب تفسير. ولكن في الحقيقة لو تعمقنا فيه نجد بأنه يحتوي على آلاف التفاصيل ودقائق الأمور. فهو ليس عبارة عن تفسير يهدف إلى بيان معاني القرآن الكريم، ويتبع الأسلوب التقليدي في تفسيره وشرحه، وإنما قد نقشت فيه أيضاً التربية التي يحتاجها الإنسان في وقتنا الحاضر. لقد كنت بين الحين والآخر أغرق في التفكير وأقول لنفسي:

لقد ربى سامي أفندي أناساً سوف يحملون الأمانة المعنوية والروحية المتوارثة من النبي ﷺ ويسيرون بها على نهجه. وأحد هؤلاء موسى أفندي، فقد تصدى لحمل هذه الأمانة على أحسن وجه. إذ قام موسى أفندي بدور عظيم الأهمية في مسألة نشر كتب السيد سامي أفندي.

لماذا كتب سامي أفندي عن سيدنا يوسف عليه السلام؟

ولماذا كتب عن سيدنا إبراهيم عليه السلام؟

ولماذا كتب عن مناقب الصحابة الكرام؟

لقد توصلت إلى الأمر الآتي:

إن سامي أفندي ليس بالإنسان الذي يوجِّه نصائحه وتنبيهاته بطريقة مباشرة، بالقول لأحدهم مثلاً: هذا خطأ، وهذا صواب. وإنما كان واحداً من أهل الله يستخدم أسلوب الإشارة في النصح والتنبيه متبعاً مبدأ: (إن اللبيب بالإشارة يفهم).

ولذلك أعتقد بأن هذا المجتمع بالنسبة إليه لا سيما في السنوات الثمانين الأخيرة التي نعيشها يحتاج إلى أمور أساسية:

الأمر الأول: عقيدة التوحيد.

فعندما تعرضت عقيدة التوحيد للانتهاك والانحراف، اتجه سامي أفندي بصمت ودون مناقشة أحد، أو الدخول في مناظرات وجدالات إلى العمل على حماية عقيدة التوحيد تلك، والتعبير عن دقَّته في تلك المسألة بالكتابة عن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأخذ يوضح كيفية العبودية الحقيقية، والماهية التي تكون عليها المشاعر التوحيدية، ولمن سيخضع الإنسان ويتعبده ويدين له بالطاعة. وكل ذلك من خلال تفسير القرآن الكريم.

الأمر الثاني: التعريف بالنبي ﷺ وأصحابه الكرام.

وهذا الأمر يشكل حاجة دائمة للإنسان في جميع العصور. أي إن الإنسان الوحيد الذي ينبغي التعرف إليه من الجانب الشرعي والتصوفي والإحسان، والقدوة الوحيدة التي ستُتَّبع إنما هو رسول الله ﷺ والصحابة الذين وصفهم بقوله: "أصحابي كالنجوم". ولذلك اتجه سامي أفندي إلى كتابة كتب عن عدة غزوات للنبي ﷺ وهي غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة تبوك، وبعد ذلك عمل على كتابة سلسلة الصحابة الكرام مبتدئاً بأبي أيوب الأنصاري، ثم سيرة خالد بن الوليد رضي الله عنه لاتصال نسبه به. ولا شك أننا عندما نُذكِّر أنفسنا بين الحين والآخر بغزوة أحد فإننا نشعر بالحزن والأسى، وعندما نذكُر غزوة بدر فإننا نشعر بجلال الصحابة الكرام وجلادتهم، فكيف بمن كان يحضر الصحبة؟ لا ريب بأن الحاضرين جميعاً كانوا يشعرون بكل ذلك بشكل أجلى وأدق. وأما الكتاب الذي يتحدث عن غزوة تبوك فذاك شأن آخر. إذ إنه كتاب مهم لأنه يحتوي على عبر ودروس مهمة للمسلمين. فغزوة تبوك كانت في الحقيقة غزوة امتحان وتمحيص للصحابة الكرام. ففي نهاية الغزوة، توجه الصحابة إلى المدينة في طريق سفر طويل وشاق، وما إن وصلوا إلى المدينة حتى جاء قول رسول الله ﷺ الذي يخبرهم بعدم انتهاء المهمة:

"رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر".

[رواه البيهقي]

أجل، لقد قطع الصحابة ما يزيد عن ألف كيلومتر في ظروف صعبة حتى وصلوا إلى تبوك، وقد أصاب بعض الصحابة ضعف شديد حتى لربما التصق جلده بعظمه، ثم بعد ذلك قفلوا عائدين. إلا أن الآية الكريمة:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ [الشرح: ٧]

كانت تقتضي أن ينتقل النبي ﷺ من جهاد إلى جهاد آخر، ومن عمل إلى عمل آخر باستمرار.. إذاً فإن هذا الكتاب الذي يبحث عن مجريات هذه الغزوة وتفاصيلها وحكمها، يحمل أهمية كبيرة من حيث تذكير المسلمين اليوم بأمر مهم للغاية وهو الجهاد،

ولا يُقصد بالجهاد فقط الجهاد المادي القتالي، وإنما أيضاً جهاد النفس الذي يحمل أهمية أكثر من الجهاد الأول، كما أفاد بذلك الحديث النبوي المذكور آنفاً والذي عبر عنه بالجهاد الأكبر.

أعيد القول هنا من جديد؛ إن سامي أفندي كتبَ أعماله والله أعلم على أساس تفكير جاد وذي غاية، أي بوصفها مشروعاً على حد تعبيرنا. إذ لماذا يكتب عن سيدنا يوسف عليه السلام وعن سيدنا إبراهيم عليه السلام؟ قال أحد كبرائنا: "إن سامي أفندي لفت الانتباه كثيراً إلى ثلاث علاقات: الأولى: العلاقة بالمال، والثانية: العلاقة بالشهرة، والثالثة: العلاقة بالنساء".

وفي الحقيقة لو نظرنا إلى ما يُبَث في وسائل الإعلام اليوم لوجدنا مجموعة من سبل الفساد التي تستهدف نقاط الضعف لدى الإنسان، وهي عبارة عن الضعف تجاه المال، أو الشهرة، أو الجنس الآخر. إلا أن سامي أفندي قد أقام في الحقيقة سدوداً دفاعية منيعة جداً من أجل كل هذه الانحرافات. فقد أقام هذه السدود الدفاعية من جهة في نفسه، وفي حياته الخاصة، ومن جهة أخرى لدى الناس الذين انشغل بتربيتهم من خلال أعماله وكتاباته، حيث ظل باستمرار يحذرهم وينبههم إلى هذه النقاط الخطيرة.

كان لنا أخ يُدعى حسين السامسوني، وسمعت منه قوله: جاءنا سامي أفندي إلى سامسون ونحن ثلاثة أشخاص. كنا وقتها في ريعان الشباب. وكانت زوجتي مثل ابنة سامي أفندي، فقلت له: يا سيدي! لو أنك تأذن لزوجتي فتأتي لتلقي عليك السلام وتقبل يدك... فاحتد فجأة وقال: "نحن نعيش من أجل الشريعة، وموجودون من أجل الشريعة، ولا نسمح لمثل هذه الأمور أن تحدث. وإذا كان لديهن اهتمام فليروننا من بعيد عندما نخرج للوضوء".

فهذا الإنسان الذي يمتلك مثل هذه الدقة في مراعاة الشريعة، يقول أيضاً عندما يكتب عن يوسف عليه السلام: أعتقد أن من واجبنا اليوم رجالاً ونساءً إعادة قراءة قصة يوسف عليه السلام والتأمل فيها من جديد.

ينبغي أن نعيد قراءتها إذ تحتوي على الدلالات والإشارات المعنوية والروحية من جهة، ومن جهة أخرى على الدقائق الشرعية.

فكما أشرت قبل قليل إن هذه الأعمال تشكل مشروعاً في ذهن سامي أفندي، حيث إنه بالفعل أورد الأسس الرئيسة للتربية التصوفية في كل هذه الآثار والأعمال التي كتبها.

ومثال ذلك كتاب (المصاحبة ١) والذي يشد انتباهي كثيراً... ففيه يشير إلى الأمور التي تشكل الخطوط العريضة والرئيسة لمجتمع اليوم أيضاً، فيقول:

أولاً: يجب تصحيح العقائد على ضوء الكتاب والسنة. إذ قام علماء أهل الحق بفهم تلك العقائد من الكتاب والسنة واستنباطها؛ أي إن علماء أهل الحق فهموا وتعلموا هذه العقائد من الكتاب والسنة ونقلوها كما فهموها.

ثانياً: يجب العلم بالأحكام الشرعية بشأن الحلال والحرام، والفرض والواجب.

ثالثاً: يجب العمل وفق مقتضيات هذا العلم.

رابعاً: يجب القيام بتزكية النفس، وتطهير القلب.

الظالمون لأنفسهم

من دروس
الشيخ محمود سامي
رمضان أوغلو

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (التوبة: ٢٣)

فملازمة الكافرين والإدانة لهم بالولاء والصحبة ظلم للنفس. لأن كفرهم وضلالهم يسري إلى المقربين منهم والملازمين لهم. وخاصة إذا كانوا من ذوي القربى، فتأثيره يزداد أضعاف كثيرة...يذهب فخر الرازي والخازن إلى المقصود بهذه الكريمة: هو نهي المؤمنين من اتخاذ الكافرين والمنافقين بطانة وأصدقاء. أي لا يتخذ المؤمن الكافر صاحباً وصديقاً. ولو كان هذا الكافر من ذوي القربى مثل أبيه، أو أمه، أو إخوته". وكذلك يقول الحق ﷻ:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ والله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤)

أي إذا كانت الأشياء المذكورة في الآية الجليلة أحب إليكم من الله تعالى ورسوله ﷺ ومن الجهاد في سبيل الله فانتظروا حتى يأتي أمر الله بنزول العذاب عليكم.

تدل هذه الآية القرآنية على ضرورة ووجوب تحمل كافة المضار والصعوبات والمشقات الدنيوية التي قد يتعرض لها المؤمن في سبيل الدين. وفيها إشارة إلى أن هناك عاقبة وخيمة تنتظر الإنسان إذا لم يكن مستعداً للتضحية بكل شيءٍ، أي بماله، ونفسه في سبيل دينه.

فالله ﷻ قال في هذه الآية: "إذا كانت هذه الأمور والأشياء الدنيوية أحب إليكم من الدين فانتظروا البلاء الذي سيحل بكم!". وهذا بيان أن عدم مراعاة الأمور الدينية تشتمل على مختلف أشكال البلايا والمصائب والمخاطر.

ويقول الله تعالى في سورة هود الآية ١١٣:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾

جاء في تفسير فخر الرازي، والخازن:

أن معنى لا تركنوا: هو الميل والمحبة بالقلب للظلمة. أو الرضا بظلمهم. ومن ثم فإن معنى الآية:إذا أحببتم الظالمين وسكنتم وملتم إليهم بقلوبكم، ورضيتم بظلمهم فسوف تصيبكم النار. فلا تميلوا إليهم بالمحبة كي لا تمسكم النار.

وإلا أصابتكم النار ثم لا تجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله غداً في يوم القيامة".

من حِكم
الشيخ
موسى طوبّاش

معرفة الله عزّ وجلّ

معرفة الله علم الوجد، معرفة الله علم الشوق، معرفة الله علم العشق. معرفة الله طاعة. إلا أن الخالق جل جلاله لا يذيق هذه النعمة العظيمة إلا لمن شاء، وأحب. وهذا التذوق يختلف حسب الشخص. فالبعض يتذوق القليل منها، والبعض حتى الشبع، والبعض يتذوقها حتى الاكتفاء. ويُعطى البعض الآخر بلا حساب، ولا يُبالي إن ذهب عقله، أو هام على وجهه في شعاب الجبال.

وورد عن أحد العارفين قوله:

مساكين أهل الدنيا خرجوا منها ورحلوا وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: معرفة الله تعالى ومحبته، فهي ألذ وأطيب نعيم الدنيا.

وسأل جنيد البغدادي السري السقطي ـ رحمه الله ـ: كيف أصبحت بالأمس؟.

فقال سري السقطي: ليس عند الله صباح ومساء. أي أن العارفين لا يبالون بالساعة والوقت. فهم مشغولون على الدوام وفي كل لحظة بمعرفة الله تعالى، وينسون أنفسهم في الحضرة الإلهية.

ويقول داوود الكبير ـ رحمه الله ـ:

إن ما قام به أهل العرفان من أعمال في دار الدنيا ليس لأجل حال، ولا مقام دنيوي... وإنما لتحصيل المكانة والمقام عند الذات الإلهية. وما الذي يريدونه بعد تحصيل هذا؟ فهناك تُختصر كل الأحوال والمقامات. فتحرى واشتر، وتخير والبس. هنيئاً لمن وجد.

مهما امتدح العارف وأثني عليه فلا يوفى حقه من الوصف والثناء. لأنه في كل أحواله مع ربه، ولا يجد السكينة والطمأنينة إلا بمعيته. ولا يبعده ولا يقطعه عن محبوبه نوم ولا يقظة. وليس في نظره موجود إلا الله تعالى. ولا يعرف إلا الله تعالى. فهو نسي حتى ذاته، من حالة الحيرة والإعجاب المستمرة. ولا يشغل تفكيره شيء سوى الحق سبحانه. فهو في الظاهر أصم، أبكم، فان. إنه وُجد بالفناء. هو أبكم ولكنه يقف على الحوادث المعنوية. وهو أصم، ولكنه مدرك لكافة الأحاسيس والمشاعر المعنوية.

إذ أن العارفين في مقام الرضا. فقلوبهم هادئة أمام كل الحوادث. فالرضا سرور القلب بكل الأقدار. والعارف يجعل من حب الله، والخضوع لقضائه وقدره لذة ومتعة. لأن أساس الرضا الوثوق بالله تعالى شأنه والتوكل عليه.

ورد في معرفة نامه: أربعة أمور تحقق السعادة في الدنيا والآخرة: التوكل، والتفويض، والصبر، والرضا.

عثمان نوري طوباش

رمضان العُمر

الحمد لله الذي زين من جديد أيام عمرنا نحن عباده العجّز الضعفاء بشهر رمضان المبارك الذي تتنزل فيه المغفرة والعفو والرحمات الإلهية. الذي فيه ليلة القدر التي هي خير من سنوات العمر كله، والكنز المعنوي والروحي الذي لا يُقدر بثمن...

فما أسعد المؤمنين الذين عزموا في الأيام المباركة على:

- الاعتناء بصلواتهم، وبذل أقصى جهودهم لأدائها بخشوع.
- قراءة الأوراد بقلب خاشع فياض .
- تهذيب الروح وتطهيرها بالصوم للوصول إلى مرتبة التقوى.
- كسب روحانية الأسحار بالسحور.
- التقرب إلى الله تعالى بالزكاة، والصدقات.
- وبالنتيجة الخروج من هذا الشهر وقد نال المغفرة وتطهر من الذنوب والآثام!...

مهما شكرنا ربنا ﷻ على هذا الشهر الذي تكرم به علينا فلن نوفيه حقه!..يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧)

فالشكر وسيلة لطرح البركة في النعم، ودوامها وبقائها. فعلينا عدم إهمال الشكر المتعلق برمضان المبارك سواء القولي أو الفعلي كي تظهر بركة الشكر في هذه النعمة أيضاً، أي نعمة رمضان.

ولهذا علينا أن نظل محافظين على القيم المعنوية التي نكتسبها في الأجواء الفياضة لرمضان المبارك والتي تربي وتزكي الأرواح حتى بعد انتهاء الشهر،

ولا نفقدها أبداً. وذلك لأن إضفاءنا لروحانية رمضان على أيام العام كلها سيكون أجمل تعبير عن شكرنا الفعلي لربنا سبحانه وتعالى.

العبودية حتى الرمق الأخير

علينا ألا ننسى بأن حياة الإسلام، والتدين، والعبودية، والزهد، والتقوى ليست مخصوصة بشهر رمضان المبارك، ولا فاصلاً من المراسم والطقوس مؤقتة. وإنما هي قيم مصيرية بغاية الأهمية والتي يجب أن يجعلها المؤمن تاجاً على رأسه طوال حياته.

فالله ﷻ يأمرنا بالعبودية لذاته العلية في كل وقت وزمان، وليس فقط في رمضان. حيث يقول في الآية القرآنية:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩)

فالقرار الإلهي بحق الإنسان يتخذ على أساس الأنفاس الأخيرة.

ولكي نلفظ الأنفاس الأخيرة ونحن على إيمان سليم لا بد أن يكون قلبنا متقلباً بين "الخوف والرجاء"، أي الخوف من غضب الله ﷻ، والأمل برحمته، مدى الحياة. ويقول الله تعالى أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

فلا مناص للإنسان لكي يموت على الإسلام سوى الاستمرار في العبودية لله تعالى دون الوقوع في الغفلة واتباع النفس ولو للحظة واحدة. وقد قدم لنا رسول الله ﷺ نموذجاً منقطع النظير في هذا المجال بتضرعه إلى مولاه ﷻ، قائلاً:

«اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» (السيوطي، الجامع الصغير، ج١، ص،٥٨)

وبذلك علمنا ﷺ كيف ينبغي أن تكون حالتنا الروحية في العبودية للحق سبحانه وتعالى.

يجب علينا الإبقاء على ارتباطنا بدين الله تعالى حياً ومتجدداً في كل مكان وزمان حتى الأنفاس الأخيرة من حياتنا. ينبغي أن نعيش في كل لحظة من لحظات حياتنا بعشق إيماني يزيد يوماً بعد يوم بموجب الدستور النبوي القائل: "من كان يومه كأمسه فهو مغبون". علينا الالتجاء والتضرع إلى ربنا ﷻ.

وكما أن الله ﷻ قد أخفى ليلة القدر في طيات أيام السنة، فإنه كذلك أخفى الوقت الذي يمكن أن يتجلى فيه رضاه وغضبه بين ثنايا الزمن.

وبذلك أراد لنا أن نحرص في كل لحظة من لحظات حياتنا على القيام بالأعمال الصالحة، واجتناب ارتكاب الذنوب والمعاصي. ولذلك فإن الإسلام ينظم ويضبط كل لحظة من لحظات الحياة. فإتباع تعاليم الدين في أوقات معينة، والتغافل عنها أو اجتزائها بتطبيق بعضها وإهمال البعض الآخر يعرض الإيمان للضعف والنقصان.

وبناء على ذلك ينبغي أن نكون خلال حياتنا حذرين حذراً شديداً من الوقوع في الغفلة ونسيان الخالق ﷻ ولو للحظة واحدة. لأن الله تعالى يقول:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: ١٩)

ولذلك يجب علينا الإبقاء على ارتباطنا بدين الله تعالى حياً ومتجدداً في كل مكان وزمان حتى الأنفاس الأخيرة من حياتنا. وأن نعيش في كل لحظة من لحظات حياتنا بعشق إيماني يزيد يوماً بعد يوم بموجب الدستور القائل:

«من كان يومه كأمسه فهو مغبون».

إن نصائح مولانا جلال الدين الرومي الآتية تُعد أجمل تعبير عن أفق عبودية المحبين والعاشقين للحق سبحانه وتعالى، حيث يقول:

«توضأ وضوءاً لا ينقض، وصل صلاة لا تنتهي أبداً. فالعاشق لا تكفيه خمس صلوات في اليوم، وإنما يريد خمسة آلاف صلاة. إذ هل يريد العاشق الحقيقي انتهاء الوصل؟..».

العبادات تكتمل بأدائها في أوقات محددة. ولكن العبودية دائمة ومستمرة. فالإيمان هو ارتباط القلب الدائم بالحق ﷻ. ولذلك فإن العاشقون للحق ﷻ الذين يعيشون إيمانهم بعشق يجعلون الفيوض والروحانية التي يحصلونها في العبادة مستمرة مع كل نفس يتنفسونه. ولا يغفلون عن الحق ﷻ في أي زمان ومكان. ولأنهم يشعرون بأنهم في الحضرة الإلهية كل آن ولحظة فإن وضوءهم، وصلاتهم، وبالتالي عبوديتهم تكون دائمة ومستمرة.

إن علامة الملذات والشهوات النفسية هي انطفاء نار الرغبة والانجذاب إليها فور تذوقها. وأما الملذات والمتع الروحية؛ فكلما تذوقها العبد كلما ازدادت الرغبة والشوق إليها بشكل أكبر.

ومثال ذلك؛ الصائم الذي يبقى جائعاً طوال ساعات النهار، فإنه عند الإفطار يشبع من طبق صغير من الطعام، وتنطفئ رغبته وشهوته نحو الطعام مهما كان طيباً ولذيذاً. وأما الملذات الروحية فليست كذلك. إذ أن في الملذات الروحية نشوة لا نهاية لها ومن شأنها أن تزيد من رغبة المؤمن إليها إذا ما تذوقها.

فلأن العباد المقربون من الحق ﷻ بدأوا بالإحساس بنفحات ونسائم الملذات الباقية فقد فقدت الملذات والمتع الفانية قيمتها وأهميتها في عيونهم. ولذلك فإنهم بدلاً من استخدام النعم التي تقع بين أيديهم لأنفسهم وإن كانت لهم حاجة إليها يتصدقون بها على المحتاجين لوجه الله تعالى، ويشعرون بلذة أكبر مما لو أنفقوها على أنفسهم.

وقد كان رسول الله ﷺ لا يهدأ له بال ولا يغمض له جفن، ولا يأكل حتى يشبع جياع الأمة، ويفرج كرب مكروبيهم.

وكأن اللذة والمتعة الروحية التي كانت تجلبها له الشفقة والرحمة بالمخلوقات من الخالق سبحانه وتعالى تنسيه جوعه وآلامه.

إن اللذة الروحية للعبادات التي يتم أداؤها بخشوع، أي بقلب موصول بالله تعالى لا تقبل حتى مقارنتها مع الملذات والمتع المادية الفانية.

وأنّ العبادات، والطاعات، والتضحيات والخدمات التي قام بها العاشقون الذين تذوقوا طعم الطمأنينة والسلام المعنوي والروحي لمعيتهم مع الله، لم تتسبب لهم بأي تعب أو إرهاق في يوم من الأيام، بل على العكس من ذلك؛ فقد بلغوا حالة من النشوة واللذة التي لا نهاية لها. ولهذا فإنهم يتمنون من كل قلبهم أن لا تنتهي حالة الوصل مع الحق ﷻ.

علينا أن نظل محافظين على القيم المعنوية التي نكتسبها في الأجواء الفياضة لرمضان المبارك والتي تربي وتزكي الأرواح حتى بعد انتهاء الشهر، ولا نفقدها أبداً. وذلك لأن إضفاءنا لروحانية رمضان على أيام العام كلها سيكون أجمل تعبير عن شكرنا الفعلي لربنا ﷻ

وكذلك فإن المؤمنون الذين يعرفون قيمة وأهمية رمضان المبارك حق المعرفة، ويصومون أيامه ويحيون لياليه بما يليق به لا يتمنون أبداً أن تنتهي أجواء الرحمة هذه، ولا أن ينقطع تدفق الفيوض الكامنة فيها.

فكما قِيلَ:

«لو يعلم العباد ما في رمضان لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان...» (الهيثمي، ٣، ١٤١)

ويصف معلى بن الفضل أحد مظاهر هذه الحقيقة لدى المؤمنين الصالحين بقوله:

«كان السلف الصالح يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ويدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم» (قوام السنة، الترغيب والترهيب، ٢، ٣٥٤)

رمضان قلب العام

ينبغي أن نعلم بأن شهر رمضان بمثابة القلب من السنة. وعلينا أن لا ندع مجالاً لتناقص أو نزول مستوى العبودية التي حققناها في هذا الشهر، إذ ينبغي أن نسعى جاهدين على ربط رمضان الذي مضى برمضان المقبل بوجد قلبي متزايد. ولا ريب أن المؤمن الذي يوفق لمثل هذا الأمر سوف يمضي كامل أيام عامه بروحانية ورحمانية رمضان المبارك.

فما الذي ينبغي علينا فعله والتركيز عليه والانتباه إليه ومراعاته حتى تكون السنة كلها بروحانية وفيض رمضان المبارك؟

أولاً؛ نحقق استدامة حقيقة رمضان إذا ما صبغنا كل أوقاتنا بصبر رمضان وزهده، وحفظنا أنفسنا من الطمع، والشره، والجشع، والإسراف، والغضب، والسيئات والمعاصي.

فاستحباب صوم الأيام الستة من شهر شوال التي تعقب عيد الفطر مباشرة هو من جهة وسيلة لاستعادة الجسم دورته ونظامه الطبيعي بالتدريج، ومن جهة أخرى تعليم لمتابعة الروحانية والمحافظة عليها بالنوافل. والأمر ذاته ينطبق على صيام الأيام البيض، وصوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع.

فالصوم يُعلم الصبر. والصبر من لوازم المؤمن في كل وقت وأمر، فالصبر لازم للاستمرار في العبادة... ولمقاومة المعاصي، ورغبات وشهوات النفس... والصبر لازم عند نزول المصائب والبلايا، والصبر ضروري للوقاية من زلات القدم، والوقوع في وديان الغفلة عندما تهتاج الرغبات والشهوات النفسانية بفعل توفر المال والثروة... والصبر ضروري في حالة الحرمان لحفظ العقيدة من الاهتزاز الذي قد يسببه الفقر، وكذا للامتناع عن سلوك طرق الحرام، ولتجنب التذمر والاعتراض والشكوى... لأن الحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥)

يقول الله ﷻ:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا...﴾

فينبغي أن نصغي جيداً إلى هذا التحذير الإلهي، وأن نكون بغاية الخوف من عدم قبول أعمالنا الصالحة وذهابها هباءً منثوراً.

ومن جانب آخر؛ هناك عاملان لهما أثر كبير على الإنسان: الصحبة الصالحة، واللقمة الحلال. فإذا ما التزمنا بهما في شهر رمضان، فنكون بذلك قد حافظنا على استمرار الشعور الرمضاني.

وكما أننا نغلق أفواهنا أمام الطعام والشراب خلال الصيام، فينبغي كذلك إغلاق قلوبنا أمام النفاق، والرياء، والعجب، والكبر، والغرور، والتذمر، والحسد والجشع في كل الأوقات. وإغماض عيوننا عن النظر إلى كل ما حرمه الله تعالى. وسد آذاننا عن الاستماع إلى كافة الأصوات والأقاويل السيئة والمنكرة التي نهانا عنها القرآن والسنة.

وإذا استطعنا آن نضفي يقظة السحور على كل الأسحار، أي أن نعتاد على تزيين الأسحار خلال أيام العام بالتهجد، وذكر الله، والاستغفار فإننا نكون قد حفظنا فيوض القلب التي تسود في رمضان المبارك طوال العام.وإذا تعاملنا مع كل ليلة من أيام العام وفقاً لدستور "انظر إلى كل ليلة على أنها ليلة القدر." وأولياها الاهتمام الذي نوليه في البحث عن ليلة القدر في رمضان المبارك، فإن كل أيام السنة تصطبغ بروحانية رمضان وفيوضه.

وإذا تمكنا من تحويل عزيمة السعي إلى المساجد لأداء صلاة التراويح إلى عشق المداومة على الجماعة طيلة أيام العام، فإننا نكون قد حافظنا على تجدد الأجواء الروحية السائدة خلال رمضان في قلوبنا في سائر لحظات العام بشكل دائم.

تُعد الصدقات وأشكال الإنفاق المختلفة بمثابة باب مفتوح على الدوام للحصول من خلاله على رضا الحق سبحانه وتعالى مدى الحياة. فإذا تمكنا من إظهار الحرص على الوفاء بالزكاة والصدقات ومختلف ألوان الإنفاق الذي نبديه خلال شهر رمضان في سائر الشهور الأخرى؛ وإذا استطعنا التخلص من البخل والطمع، وأقدمنا على الخدمة والتضحية بكرم وجود؛ وإذا تمكنا من تذكر الفقراء والمحرومين واعتبرنا أنفسنا مسؤولين عنهم، وزدنا من الرحمة والشفقة عليهم فإننا نكون قد حافظنا على مناخ الرحمة الرمضانية خلال كل أيام العام.

وكان والدي موسى المحترم يشجع بكل وسيلة محبيه وأقربائه على الإنفاق بكرم وسخاء من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وذلك من أجل نيل رضا الله ﷻ قيقول:

«يا أولادي؛ عيشوا حياتكم بحالة من الزهد، وأنفقوا ما أكرمكم به الله في سبيل الله! ولا تكونن حالة الزهد محصورة فقط بشهر رمضان المبارك! وإنما اصبغوا بها كل مراحل وأيام حياتكم، وأنفقوا ما زاد عن حاجاتكم في سبيل الله تعالى!..واعلموا هذا جيداً، فإنكم حتى لو عشتم في قصر فمع ذلك أنتم مجبورون على العيش بقناعة، ومن أجل ذلك أخرجوا أموالكم، وأملاككم من قلوبكم، وإذا لم تنفقوا الزائد عن حاجتكم في سبيل الله سبحانه وتعالى فإنكم سوف تصبحون من الجاحدين لنعم الله تعالى عليكم، ولا تنسوا أن عدم الإنفاق إضرار بالنعم، وإن حساب الإضرار بالنعم عسير، ووبال يوم القيامة.».

إن الشياطين تُصفد في شهر رمضان المبارك، وتبقى النفس لوحدها العائق أمام العبد. وأما بعد انقضاء شهر رمضان فتُحل أصفاد الشياطين التي تعود إلى محاولة إبعاد العبد عن ربه سبحانه وتعالى. ولكن إذا استطعنا تجنب الذنوب والمعاصي، والبقاء بحالة من التيقظ والحذر الدائم تجاه دسائس ومكائد النفس والشيطان، فإننا نكون قد حافظنا بذلك على الصفاء والرقة القلبية التي كانت قائمة في رمضان. إذ يقول الله سبحانه وتعالى في الآية القرآنية:

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت: ٣٦)

والحاصل؛ إن نسبة فلاحنا في إحياء شهر رمضان المبارك بشكل مقبول متوقفة على نسبة فلاحنا في جعل هذه الأمور التي ذكرناها نهجاً ودستوراً لحياتنا.

علامة العمل المقبول

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل»

(مسلم، المسافرين، ٢١٨؛ أحمد، ٦، ٦١)

ويقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الانشراح)

يأمرنا الله ﷻ في هاتين الآيتين بالمثابرة المستمرة على أعمال الخير، حيث أننا ما إن ننتهي من عمل خير حتى نباشر بغيره دون توقف وتمهل.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن علامة قبول العبادة هي السعي إلى عبادة أخرى بعد الانتهاء من تلك، والسعي للقيام بأعمال الخير واحداً بعد الآخر دون توقف».

وأما علامة عدم قبول العمل الصالح، فهي إتباعه بالمعصية، أي ارتكاب الخطايا والسيئات بعد القيام به. يقول الحق ﷻ:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا...﴾ (النحل: ٩٢)

فينبغي أن نصغي جيداً إلى هذا التحذير الإلهي، وأن نكون بغاية الخوف من عدم قبول أعمالنا الصالحة وذهابها هباءً منثوراً. إن مثل من يعود إلى المعاصي، والغفلة بعد رمضان كمثل من ملأ كيسه ثم تركه دون أن يحكم ربطه. فينتثر ما جمعه فيه على الأرض، ولا ينال من عمله إلا الخسران.

ولذلك يقول الإمام علي كرم الله وجهه:

«كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل»

فمن أمثلة ضياع ثواب الأعمال الصالحة هي؛ اقتران العبادات بالغرور، والكبر، والعجب، والأنانية، وإدخال حظوظ النفس فيها كأن يقول الرجل: فعلت كذا وكذا.

إذاً يجب الاهتمام بقبول العبادات وأعمال الخير بقدر الاهتمام بإتيانها.

إننا نبذل في شهر رمضان المبارك بشكل عام جهداً أكبر للتقرب إلى ربنا سبحانه وتعالى بالصيام، وصلاة التراويح، وتلاوة القرآن، وبالصدقات، وزكاة الفطر وغير ذلك من أعمال الخير. بينما ينبغي أن يكون السؤال الأهم الذي يتبادر إلى أذهاننا وقلوبنا هو:

«تُرى؛ هل قوبلت الجهود التي بذلناها لإحياء الشهر المبارك بالقبول عند الله ﷻ».

يُعد شهر رمضان المبارك موسم الرحمة الذي تسوده الرحمة الإلهية، وشهر الفيوضات، وخير الأوقات التي تتغلب فيها الروحانية على النفسانية. وهو مدرسة التقوى التي تخضع فيها النفس للتزكية والتربية. لأن عبادة الصيام المفروضة فيه تعلم الإنسان الارتقاء الروحي بتهذيب النفس وكبح جماحها. وهو الذي تمتلئ فيه القلوب بالعشق والإيمان.

يقدم لنا ميرزا مظهر معياراً في هذا الخصوص بقوله:

«إذا أحيي شهر رمضان بالذكر مع حضور القلب، فإن هذا الحال الجميل سوف يستمر بقية أيام السنة. وإذا ما حدث تقصير أو تهاون في هذا الشهر، فإن أثره سوف يبدو على مدار العام كله»

أي أن الأجواء المكتظة بأشكال العبادة، ومستوى العبودية الاستثنائي الذي يبلغه العبد خلال رمضان بمثابة البذرة التي يتم زرعها في الأرض. والتي سوف يتبين أثرها وصلاحيتها للنمو من عدمها في الشهور الأخرى.

والحاصل؛ إن حالنا وتوجهنا عقب شهر رمضان المبارك هو أحد العلامات التي تشير إلى قبول عبادات شهر رمضان أو عدم قبولها. فالمعيار الذي يحدد مدى الاستفادة التي حققناها في هذا الشهر الفضيل، هو مدى تمكننا من الحفاظ على حالة العبودية التي كسبناها في هذا الشهر.

وقت المحاسبة

ينبغي علينا بعد انتهاء شهر رمضان المبارك محاسبة أنفسنا، وإلقاء نظرة متفحصة على أحوالنا. ونتساءل:

- لقد رحل شهر رمضان المبارك، فما الذي خلفته لنا هذه الأيام المباركة؟
- هل استطعنا أن نجعل رمضان المبارك وسيلة لتلافي أخطائنا وتقصيرنا، ولزيادة حالاتنا الإيجابية، وللارتقاء بمستوى أخلاقنا وسلوكنا؟
- ما هي الخطايا التي تبنا عنها؟ وكم هي العادات السيئة التي تركناها؟
- كم من الأشخاص تسامحنا معهم واعتذرنا منهم؟
- ما مدى مساهمتنا في تحقيق الصلح بين إخواننا؟
- كم من القلوب المنكسرة واسينا؟
- كم أعدنا البسمة للوجوه المظلومة المكروبة؟
- ما مدى استكمالنا لنواقص عباداتنا وقضاءها؟
- كم قدمنا من الخدمات والجهود التي ستكون وسيلة لإنارة ظلمة قبورنا، وتيسير حسابنا في المحشر، ونيلنا السعادة الأبدية؟
- هل تلافينا نواقصنا وتقصيرنا فيما يتعلق بمسؤولياتنا تجاه أسرتنا، وجيراننا، وأقربائنا، ومجتمعنا، وأمتنا، وجميع المخلوقات الأخرى؟ وما هي القرارات التي استطعنا اتخاذها بهذا الخصوص؟
- وإن كنا قد قمنا بعمل خير وإصلاحي؛ فهل بقي محصوراً بشهر رمضان، أم أنه ما يزال مستمراً بعد رحيل هذا الشهر المبارك؟

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عباده الصالحين السعداء الذين يخرجون من رمضان المبارك وقد نالوا شهادة العيد الحقيقي. وأن يوفقنا لأن نحيا كل أيامنا وسنواتنا بفيض وروحانية رمضان الفضيل. وأن يجعل لنا جميعاً الدار الآخرة عيد سعادة وسرور أبدي. آمين!..

علينا نا أن نعلم بأن الرحمة الإلهية تصيب الذين استطاعوا أن يحافظوا على الخصال الحسنة المكتسبة في شهر رمضان المبارك لتهيمن على سائر أيام وسنوات حياتهم. الرحمة الإلهية تتجلى في كل لحظة وآن، والأمر المهم للعبد هو البحث عن الوسائل التي من شأنها إيصاله إلى تلك الرحمة، واستغلال الفرص المتاحة بالشكل الأمثل قدر الإمكان. وإنه لخسران وضياع كبير أن يحرص العبد على إحياء أيام وليال معينة مثل شهر رمضان المبارك، ثم يتصرف بتهاون وإهمال في الأيام الأخرى.

علينا بذل أقصى جهودنا ليكون الحماس الذي نبديه في شهر رمضان الفضيل لأداء العبادات والقيام بالأعمال الصالحة، وإعطاء الصدقات شاملاً لسنوات العمر كلها، كي نستيقظ في الأنفاس الأخيرة في صباح عيد أبدي.

يقول الله تعالى:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (الأنعام: ٣٢)

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨)

لا تلوث نفسك بأدران الدنيا

لقد أرسلنا الله سبحانه وتعالى إلى هذه الدنيا للامتحان والابتلاء، وذكرنا على الدوام أن الدنيا التي خلقها كمزرعة للآخرة ليست بدار بقاء، وإنما الآخرة هي الموطن الأصلي لنا ودار البقاء. فهناك الكثير من الآيات القرآنية التي ترينا الوجه الحقيقي للدنيا. منها:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (الأنعام: ٣٢)

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨)

ودائماً ما يحذرنا الأولياء والصالحون من أهل التصوف الذين يستلهمون آراءَهم من كتاب الله من الوقوع في مستنقع أوساخ الدنيا وخبائثها. فيقول الإمام الرباني بشأن خداع الدنيا:

"الدنيا محل الامتحان والابتلاء، ظاهرها مموَّه ومزيَّن بأنواع المزخرفات، وصورتها منقوشة وملونة بالخيلان والخطوط والذوائب والخدود الموهومة، حلوة في بادئ النظر، متخيلة بالطراوة والنضارة في البصر، ولكنها في الحقيقة جيفة مرشوش عليها العطر، ومزبلة ملآنة بالذباب والدود، سراب يُرى كالشراب، وسم في صورة عسل. باطنها خراب أبتر، ومعاملتها مع أبنائها مع وجود هذه الدمامة والوقاحة شر من جميع ما يقال ويذكر. عاشقها سفيه ومسحور، ومفتونها مجنون ومخدوع، كل من افتتن بظاهرها فقد اتسم بسيمة الخسارة الأبدية ، وكل من نظر إلى حلاوتها وطراوتها كان نصيبه الندامة السرمدية ...". (المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

وفي الواقع فإن الدنيا حسب قول الإمام الرباني ليست سيئة لذاتها، وإنما الذي يحولها إلى سوء وخبث هو نسياننا للغاية التي جئنا من أجلها إلى هذا العالم، وغوصنا في مستنقع الدنيا تجاهلنا الآخرة. ومن ثم فإن استخدام الدنيا بحق دون الانخداع بها لا يعكر صفونا ولا يشينه بشيءٍ. وحسب رأي الإمام الرباني فإن هناك جملة من المشاغل التي تلوث الإنسان في الحياة الدنيا، وتنسيه الهدف الحقيقي، فيقول في معرض بيانها:

"أيها الولد ! هل تدري ما الدنيا ، كلُّ ما يعوقك ويحجبك عن الحق ﷻ من النساء، والأولاد، والأموال،

والجاه، ، واللّهو واللعب، ... ولهذا فإن الصوفيين الذين سلكوا طريق التصوف هم أناس عاهدوا الله تعالى على حفظ أنفسهم من قذارات الدنيا وأدرانها. فالانتساب الذي يتحقق بالتوبة والإنابة يعني التوبة من حب الدنيا. غير أنه حتى أهل التصوف ليسوا بمأمن ولا مشمولين بالضمان. فالإنسان لا يكون محمياً من كل شيءٍ بمجرد سلوك طريق المعنويات والدخول فيه. فربَّما لا يمكنه المحافظة على إرادة المريدية التي هي بداية الأمر حتى النهاية. لأن الشيطان يتسلط على الذين يسلكون طريق الحق أكثر من غيرهم، فهناك الكثير ممن سقطوا في أودية الضلال والانحراف بعد دخولهم طريق الحق والسير فيه حيناً، وذلك سواء في يومنا هذا أو في الماضي. ولهذا فإن المرشدين الكاملين الحقيقيين لا يتخلون عن مريديهم الذين ضعفت توبتهم، بل يبذلون غاية جهدهم ويفعلون كل ما بوسعهم لإبقائهم على طريق الحق.

وقد وعظ الإمام الرباني مريده بكلمات ملؤها الرأفة الرحمة حيث يخاطبه بـ "أيها الولد"، وحذَّره من هذه المخاطر فقال: "أيها الولد! إن الحق سبحانه قد رزقك من كمال عنايته التي لا غاية لها التوفيق للتوبة في عنفوان الشباب، ووفقك للإنابة على يد واحد من دراويش السلسلة النقشبندية العلية (قدس اللّه أسرار أهلها) ولا أدري هل لك على تلك التوبة ثبات أو أغوتك عنها النفس بأنواع المزخرفات. وأرى الاستقامة عليها شاقَّة. فإن الموسم عنفوان الشباب، ومتاع الدنيا متيسر الأسباب، وأكثر القرناء غير مناسب في هذا الباب".

(المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

ووفقاً لرأي الإمام الرباني فإنه من الصعوبة بمكان أن يحافظ السالك على صدقه في المعنويات طالما أنه محاط بأصدقاء السوء. إذ إن الأصحاب الغافلين حتى لو لم يدفعوا الإنسان إلى الحرام بصورة مباشرة، فإنهم يزينون له الدنيا ويوجهونه إليها، فيحاول الحصول على مزيد من متعها، ومن ثم يبدأ الاعتياد على أوساخها وكدوراتها تدريجياً. ولهذا فإن أهم وسيلة للحماية وخاصة في أيامنا هذه هي الإقلال قدر الإمكان من المباحات.

حسب نظر الإمام الرباني فإن الإنسان معرض لخداع الدنيا وإغوائها في كل مراحل حياته، إلا أن أخطر وأهم هذه المراحل هي مرحلة الشباب، حيث تزداد وتيرةُ وخطورةُ الإغواء والتغرير أكثر. إذ إن طاقاته وقدراته المادية، وقلة تجربته تجعله أكثر عرضة للخداع واستجابة للمغريات.

"أيها الولد! إن الأمر والحزم هو ترك الفضول من المباحات، والاكتفاء بقدر الضرورة، وأن يكون هو أيضاً بنية حصول القوة والطاقة لأداء وظائف العبودية، فإن المقصود من الأكل مثلاً هو حصول القوة على أداء الطاعة، ومن لبس اللباس ستر العورة ودفع الحر والبرد، وعلى هذا القياس سائر المباحات الضرورية.

واختار أكابر النقشبندية العمل بالعزيمة واجتناب الرخص مهما أمكن، ومن جملة العزائم الاكتفاء بقدر الضرورة فإن لم يستطع الاكتفاء بالضرورة فينبغي أن لا يخرج من دائرة المباحات إلى حد المشتبهات والمحرمات" (المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

والأمر الآخر الذي من شأنه أن يغرق الإنسان في أدران الدنيا هو وسوسة الشيطان حيث يقول له: "إنك ما زلت شاباً في مقتبل عمرك ولك أن تفعل ما تريد، وبإمكانك أن تتوب وتعود إلى طريق الحق عندما يتقدم بك العمر أكثر". ويفند الإمام الرباني هذه الوسوسة بقوله:

"الإنسان عبد محكوم بحكم -لم يجعله المولى ولده ولم يتركه سدى- حتى يتهافت على كل ما يشاء. فينبغي عليه التفكر وإعمال القلب. ولن يصحب الإنسان المقصر غداً شيء غير الندامة والخسارة، فوقت العمل إنما هو عهد الشباب، والعاقل من لا يضيع هذا الوقت ويغتنم الفرصة. فإن الأمر مبهم، فعساه أن لا يبقى إلى زمن الشيخوخة، ولئن بقي فلعله لا تتيسر له القوة والطاقة، ولئن تيسرت فلعله لا يقدر على العمل في أوان استيلاء الضعف والعجز. في حين إن أسباب القوة كلها متيسرة الآن ووجود الوالدين أيضاً من إنعام الحق سبحانه وتعالى. فإن همّ معيشتك على عاتقهم، والموسم موسم الفرصة وزمان القوة والاستطاعة، فبأي عذر يمكن أن يُؤخر شغل اليوم إلى غد، ويختار التسويف؟

نعم إذا أخرت المهمات الدنيوية الدنية إلى غدٍ لأجل الاشتغال بأمورالآخرة في اليوم يكون فنِعْمَ الفعل فعلتَ، كما أن عكسه مستقبح جداً". (المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

وحسب نظر الإمام الرباني فإن الإنسان معرض لخداع الدنيا وإغوائها في كل مراحل حياته، إلا أن أخطر وأهم هذه المراحل هي مرحلة الشباب، حيث تزداد وتيرةُ وخطورةُ الإغواء والتغرير أكثر. إذ إن طاقاته وقدراته المادية، وقلة تجربته تجعله أكثر عرضة للخداع واستجابة للمغريات."

وفي هذا الوقت الذي هو عنفوان الشباب ووقت استيلاء أعداء الدين من النفس والشيطان فإن للعمل القليل من الاعتبار أكثر مما هو في غير هذا الوقت بأضعاف مضاعفة. فحسب القاعدة العسكرية: فإن العمل اليسير والثبات القليل للعساكر الشجعان الأقوياء الجنان وقت مباغتة الحرب وهجوم الأعداء اعتبار زائد وقيمة كبيرة لا يكون له مثلها في وقت الأمن من شر الأعداء". (المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

فإن كنا لا نريد التيه والضياع في دهاليز ظلمات الدنيا فينبغي أن لا ننسى الغاية التي أُرسلنا من أجلها إلى هذا العالم أبداً. ويجب أن لا يغيب عن ذهننا ولو للحظة أن الأعمال اليومية التي نقوم بها من طعام وشراب، ونوم وترحال ولهو ولعب ليست أهدافاً بذاتها وإنما عبارة عن وسائل.

"أيها الولد! إن المقصود من خلق الإنسان -الذي هو خلاصة الموجودات- ليس هو اللهو واللعب ولا الأكل والنوم، وإنما المقصود منه أداء وظائف العبودية والذل والانكسار والعجز والافتقار ودوام الالتجاء والتضرع إلى جناب قدس الغفار جل سلطانه، والمقصود من أداء العبادات التي نطق بها الشرع المحمدي إنما هو منافع العباد ومصالحهم، ولا يعود منها شيء إلى جناب قدسه عز شأنه". (المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

نريد في الأعداد القادمة أيضاً أن نتشارك مع قرائنا الأعزاء هذا المكتوب الطويل القيم الذي يحتوي على وصايا الإمام الرباني للإنسان من أجل أن يجتاز هذه المغامرة والرحلة الدنيوية ويعود إلى الموطن الذي جاء منه سالماً غانماً. ومما يدعو للأسف ويحز في القلب أن الكثير من أهل التصوف اليوم لم يوفقوا في هذه المسألة، وجعلوا هذا الطريق الطاهر الجميل أداة للمنافع والغايات الدنيوية. ولم يختلفوا في ذلك عن الحركات الدينية الأخرى التي بدا عليها التلوث والتوجه الدنيوي واضحاً جليًّا. نسأل المولى ﷻ أن يحفظنا من أدران الحياة الدنيا، وييسر لنا الانتفاع بها دون أن تهيمن على قلوبنا. آمين.

نور الدين يلدز

حق التفاؤل

إن حق النظر بأمل وتفاؤل إلى الحاضر والمستقبل هو حق كل إنسان، وطأ هذه الأرض وهو مؤمن. فالأمل الحقيقي هو أمل هؤلاء.

إن إيمان الإنسان، وعيشه في الحياة، وهو من أهل الإيمان، هو ارتباط وتعلق بالله تعالى الخالق، والمانح للحياة، ومهما حاول الشيطان وأعوانه ومن وضعوا أنفسهم في خدمته، إظهار الإيمان والانتماء إلى أهله وكأنه سبب للعجز وانعدام الحيلة، وعملوا على إقناع عقول الناس بهذا الأمر فإن الحقيقة الكبرى تظل هي حقيقة أن الله سبحانه وتعالى مالك كل شيءٍ، وصاحب القول الفصل، والإنسان المؤمن الذي يعيش في ظل هذه الحقيقة الكبرى، هو إنسان الأمل، فهو مفعم بالأمل، ومحط ووجهة للعيون التي تنظر بأمل على السواء.

إن الانتماء لأهل الإيمان معناه تجاوز التطلعات والطموحات المحدودة بعالم الدنيا، معناه العيش لأجل الآخرة، والاستثمار لأجل الآخرة، والنظر إلى الدنيا على أنها محطة يتوقف فيها لفترة على طريق رحلة طويلة، ثم يغادرها. فالمؤمن هو الإنسان الذي يعرف الدنيا وحقيقتها. يعرف ماض الدنيا ومستقبلها بشكل قطعي وجلي مثل معرفة وفهم الإنسان الذي ينظر من شرفة منزله للأشياء والأحداث التي تدور أمامه.

المؤمن يعرف الدنيا من خلال أبيه سيدنا آدم عليه السلام. فينظر إلى الدنيا على أنها المكان الذي هبط إليه من الجنة. إنه يعلم أنها لا تُتخذ موطناً، ولكنها مسار إجباري يجب سلوكه للعودة إلى الوطن الأصلي.

يعرف الحياة التي يعيشها من خلال سيدنا نوح عليه السلام. فحتى لو عاش المؤمن قروناً وليس سنوات، فإن الآلام والمتاعب، والمصائب التي يصادفها أمامه، لا تقضي على أمله، فغايته واضحة ومحددة حتى ولو كان وسط صحراء قاحلة، أو في قلب طوفان يجرف دنياه كلها. إنه يعمل، ويكافح ويناضل، ولا يسأم أو ينهار أبداً. إنه يعيش بإيمان وبمقتضيات ذلك الإيمان الذي لم تستطع العصور القضاء عليه.

إن أحد مصادر أمل المؤمن هي الأمور التي رآها لدى سيدنا إبراهيم عليه السلام والتي علمها من القرآن الكريم، فهو مستعد للصبر والثبات أمام مختلف العوائق والعقبات التي تظهر أمامه، مهما كان مصدرها، سواء كانت من بيته، أو من أبيه، أو من نظام، أو ملك يمتلك جيوشاً جرارة، إنه قد أخذ أمله، وثباته على طريقه والاستمرار فيه دون انكسار أو ملل، وثقته المطلقة بفوز الصابرين من إبراهيم عليه السلام.

لقد عرف منه عدم الاحتراق في النار. تعلم منه التحلي بالأمل ، وتعلم منه الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، وقول "هو حسبي"، حتى لو تحولت همومه وأشكال معاناته إلى ألسنة لهب تتأجج بين جوانحه.

المؤمن ينظر إلى سيدنا موسى عليه السلام، ويرى ما هي الأمور التي يجب أن يتحملها، والمخاطر التي ينبغي أن يخوضها، ويدرك أن المتاعب والآلام قد تبدأ حتى قبل الولادة، ويعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد حفظ الإنسان ورعايته، فلن تغرقه المياه، ولن يعاديه أحد، وعندما يدرك ويعلم ذلك، فإن بذور الأمل سوف تتفتق وتنمو وتكبر في داخله.

المؤمن يتذكر النبي عليه الصلاة والسلام ودعاءه في الطائف، إنه يحاول أن يراه في طرقات وأزقة مكة، وفي مسجده في المدينة، وعند سفوح جبل أحد، يراه وهو يحمل المعول بيده في الخندق، ويبشر بسقوط ملك كسرى، يشاهد حماسه وتفاؤله الذي لم يستطع الفقر، والوحدة، والعزلة، والحصار، القضاء عليه. إنه يستعرض أمام عينيه ذكرياته مع أصحابه بحلوها ومرها، ولحظات الحزن والفرح، التي قضاها مع أهل بيته، وكأنه يعيش معه.

إنه مع كل حادثة يفكر بها يذهب إلى تلك الأيام، إنه يقارن بيته ببيته، وصلاته بصلاته، ومدينته بمدينته، ثم يجد لنفسه مكاناً في تلك الدنيا الواسعة، إنه يجلس بأمل وتفاؤل، وينهض بأمل، وبالأمل يأوي إلى فراشه، وينهض منه في كل صباح، ليستقبل يوماً جديداً.

المؤمن ينظر إلى وعد الله بالجنة.

يجهد المؤمن، ويكافح ليكون "مؤمناً عاملاً" وهو مدرك تمام الإدراك، أن ربه لا يضيع أجر عامل، لا يرضى بالجلوس، والانتظار، ونسج الأخيلة والأوهام، وإنه يجعل كل عمل مهما كان صغيراً أو كبيراً لوجه الله. ويؤمن يقيناً أن الله سبحانه وتعالى سوف يضاعف أجر عمله ليصبح مثل جبل أحد وإن كان صغيراً.

إنه يأتمن الله سبحانه وتعالى على حاضره، ومستقبله، وعلى ما في يده، وفكره. فهو يدرك أن الله تعالى لا تضيع عنده أمانة، فإن كان المؤمن كما ذكرنا فلمَ بعد ذلك لا يكون من حقه الأمل والتفاؤل!. فحقه حسن الدنيا، وحسن الآخرة. ومن حقه التطلع والطموح، وبلوغ تطلعه. ومن حقه الجنة والأمل بالجنة أيضاً.

النفس وحقيقتها

١

لقمان حلوجي

يقول الله ﷻ:

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس: ٧-١٠)

وبلَّغنا رسوله الكريم ﷺ فقال: "المجاهد من جاهد نفسه". (الترمذي: ١٦٢١)

سنتناول في هذا المقال موضوع النفس، ويطيب لي أن أبدأ هذا المقال بالحديث النبوي الشريف الذي يرويه الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ عن سيد الخلق محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم الذي يتحدث فيه عن أهواء النفس الأمارة بالسوء وخداعها للإنسان بالشهوات والغرائز، إذ يقول:

" لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حفها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد " قال: " فلما خلق الله النار قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها". (أبو داود: ٤٧٤٤)

لقد جئنا إلى هذا العالم الدنيوي الفاني لنخضع لامتحانٍ في العبودية لرب العالمين، ولهذا فإننا مجبرون للعيش مع داء داخلي يظل يلازمنا حتى لحظة الموت؛ هذا الداء العضال يُسمى "النفس" وما تحتويه من مساوئ وسلبيات كثيرة. وإننا- أبناءَ آدم- نواجه كل آن وزمان حبائل الإغواء والوساوس والحيل الصادرة عن الدنيا، والنفس، والشيطان.

فإذا ما تجاوزنا هذه المخاطر، وتحررنا من المظاهر الخدَّاعة لهذا العالَم الفاني بتزيين حياتنا بالتقوى والعمل الصالح، عندها نستطيع أن نؤدي العبودية الحقيقية.

إن الحق سبحانه وتعالى يقسم ببعض الحقائق في القرآن الكريم للتأكيد عليها. ويزداد تكرار القَسم بازدياد أهمية الأمر المُقسَم له، فأحياناً يكون القَسَم مرتين، وأحياناً ثلاث مرات، وفي أحيان أخرى أربع مرات. ومن هنا يمكن أن نفهم مدى أهمية تزكية النفس التي قال الله تبارك وتعالى عنها بعد أن أقسم سبع مرات متتالية بسبع من التجليات العظيمة الدالة على عظمة خلقه وقدرته:

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس: ٩-١٠)

لم يقسم الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم لأي أمر من الأمور بهذا القدر من القسم المتكرر الذي بلغ سبع مرات سوى لتزكية النفس. وتظهر هذه الحقيقة لنا أيها الإخوة الأهمية الكبيرة لتزكية النفس من أجل نجاة الإنسان يوم القيامة.

ويتبين من الآيات القرآنية الكريمة أن للنفس الإنسانية جانبان: فجانب يحتوي على الرغبات والأهواء النفسية والفجور، وجانب آخر يحتوي على التقوى؛ أي نفسٌ تطلب الانغماس في مستنقع الأرض، وروحٌ تريد أن ترفرف بأجنحتها وتنطلق نحو السماء.

ولقد وضع الله ﷻ عائق "النفس" أمامنا امتحاناً لنا، وهذا العائق يعمي القلب عن الحقائق الإلهية إذا لم ينجح الإنسان في التغلب عليه وتجاوزه. وتنقلب لدى مثل هذا الإنسان الذي أصيب بعمى القلب موازين الحقائق فيظن الدناءة والتعاسة التي ينغمس فيها سعادة.

إن النفس التي تُعدُّ إحدى أعظم العوائق التي يجب تجاوزها في الامتحان الدنيوي تثير الخصال السيئة والقبيحة في الإنسان، إلا أن النفس تحتوي في لبها على طبيعة إيجابية مثل الجوهرة. ووظيفة الإنسان إخراجُ تلك الجوهرة الكامنة في النفس من خلال تطهيرها وتنقيتها من القبائح والشرور بالتربية المعنوية.

ولكن اتباع هذا المعيار في تربية النفس ينبغي أن يكون في الوقت ذاته وفق المنهج النبوي، ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قد نهى الصحابة الكرام الذين أرادوا التخلي عن الطعام، والشراب، والأهل، كي يقتصروا على العبادة فقط؛ وبيَّن لهم بأنه لا مكان للرهبانية في الإسلام.

وهذا يعني بأن تزكية النفس عمل تربوي في غاية الدقة ينبغي فيه مراعاة قوانين تربوية معينة. وقد كلف الله تبارك وتعالى أنبياءه بالذات بمهمة القيام بهذه الوظيفة التربوية.

وأرسل الله تعالى لمحبته لنا الرسلَ والأنبياء وأنزل الكتب السماوية في هذه الحياة الدنيا التي أخضعنا فيها للامتحان الإلهي. وجعل النفس التي وضعها في فطرتنا قابلةً للتقلب وفق إرادتنا، لهذا سنُكافَأ أو سنُعاقَب في الآخرة. ولو كان الأمر عكس ذلك، أي لو كانت النفس مخلوقة ومطبوعة بطابع الميل الدائم نحو السوء لوقعنا جميعنا في خطيئة الاعتراض على أوامر الله تعالى ومخالفتها.

فعلينا الحذر الشديد من الوقوع ضحية لألاعيب الشيطان ووساوسه!

لقد أقسم إبليس بأنه سوف يغوينا ويخرجنا عن السبيل، وطلب من الله ﷻ إمهاله إلى يوم القيامة من أجل قيامه بهذه الغواية، فلذلك ينبغي لنا اتخاذ كافة تدابير الوقاية من الوقوع في شراكه!

يقول الله ﷻ واصفًا قول إبليس:

{قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} (الحجر: ٣٦-٣٨)

لقد عرفنا وسائل الامتحان الذي خضعنا له في الجنة وهي العدوَّان اللدودان: إبليس وشياطينه، والنفس وأهواءها، وهذه الوسائل موجودة في الدنيا أيضًا، وأما العمود الفقري لهذا الامتحان فهو الأوامر والنواهي.

ولكن علينا أن ندرك بأن الشجرة المحرمة في هذه الدنيا ليست واحدة؛ فعوامل الغواية والإغراء والتحريف عن جادة الصواب كثيرة ومتنوعة؛ مثل: الشهوات، والأولاد، والمال، والذهب، والفضة، والمنصب والشهرة ...وغيرها.

ولكي لا تتغلب هذه المغريات على أنفسنا في هذا الامتحان الدنيوي فقد أرسل إلينا ربنا سبحانه وتعالى الذي يحرص علينا أكثر مما نحرص نحن على أنفسنا، الأنبياءَ والرسلَ من أجل إعلامنا بالأمور التي علينا اتباعها، ومن أجل تزكية النفس التي هي إحدى وسائل الامتحان. فالله ﷻ أعلم بنا، وأعرف بدواخلنا وحاجاتنا؛ كيف لا وهو خالقنا وموجدنا من العدم؟ فهو الأعلم بلا شك بمزايانا ونقاط ضعفنا وقصورنا. والحمد والشكر له أن لم يدعنا وحيدين في مواجهة الشيطان اللعين في هذا الامتحان الدنيوي. فماذا كنا فاعلين لو لم يرسل إلينا الأنبياء والرسل؟

ما أجلَّ وأعظم لطفك وإحسانك بنا يا رب وأنت القائل:

{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (آل عمران: ١٦٤)

أيها الإخوة المسلمون، يا من تمرّون كل لحظة بالامتحان في هذه الحياة الدنيا!أليس إبليس اللعين هو الذي دنا من أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام في الجنة وأغواهما، ألم يأكلا من تلك الشجرة المحرمة لوقوعهما ضحية حبائل الشيطان واتباع النفس؟

لقد علمنا إبليس في الجنة بالوساوس التي ألقاها في نفوسنا، واتَّبعنا هوى النفس. فدعونا أيها الإخوة لا ننسى هذا أبداً، وليصدح كل منا كل يوم بتصميم وحزم بقوله: "أيها الشيطان الرجيم الذي أغويت أبي وأمي في الجنة! لن تستطيع بإذن الله تعالى وعنايته خداعي وغوايتي في هذه الدنيا؛ فالمؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين! وقد أخبرني ربي ﷻ بأنك سوف تزيِّن السوء في عيني، وتعمل على تضليلي. وإني كيلا أقع ضحيةً لخداعك وحيلك سأزكّي نفسي، وأصبح عبداً مخلصاً وصالحاً، وسوف أعصيك وأطيع ربي ﷻ. فأنت تعلم بأنك لا تستطيع فعل شيءٍ تجاه عباد الله المخلصين". ومصداق ذلك ما قاله الله ﷻ:

{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (الحجر: ٣٩-٤٠)

لقد جعل الله تعالى فينا مزايا سلبية وإيجابية بناءً على حكمة امتحانه، وهذا هو السبب الذي يقف وراء قدرتنا على بلوغ منازل أعلى من منازل المخلوقات الأخرى وحتى من الملائكة البعيدين عن أهواء النفس، إذا ما نجحنا في ترقية الصفات الروحانية الكامنة في فطرتنا، فينطبق علينا قول الله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} (التين: ٤)

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ..} (الإسراء: ٧٠)

وأما إن حصل العكس؛ أي إذا أهملنا ترقية تلك الصفات الروحية، واتبعنا أهواء النفس ورغباتها، فإننا عندئذ نفقد الصفة الإنسانية، ونهبط إلى مراتب أدنى من الحيوانات، فينطبق علينا قول الله تبارك وتعالى:

{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} (التين: ٥)

{إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} (الفرقان: ٤٤)

أيها الإخوة الكرام!

طالما أن حقيقة النفس ذات أهمية كبيرة من أجل سعادتنا الأخروية، فإننا بحاجة إلى معرفة مفهوم النفس معرفة أعمق وأكثر تفصيلاً. فلهذا سنتكلم في العدد القادم عن حقيقة النفس وأوصافها كما وردت في القرآن الكريم .....يتبع ٢.

إن النفس التي تُعدُّ إحدى أعظم العوائق التي يجب تجاوزها في الامتحان الدنيوي تثير الخصال السيئة والقبيحة في الإنسان، إلا أن النفس تحتوي في لبها على طبيعة إيجابية مثل الجوهرة. ووظيفة الإنسان إخراجُ تلك الجوهرة الكامنة في النفس من خلال تطهيرها وتنقيتها من القبائح والشرور بالتربية المعنوية.

عروة بن مسعود رضي الله عنه

مصطفى أريش

يُعد عروة بن مسعود ﷺ من أقارب رسول الله ﷺ لجهة الأم.

وهو عديل النبي عليه الصلاة والسلام، حيث أنه متزوج من آمنة بنت أبي سفيان ﷺ.

هو الصحابي الأكثر شبهاً بعيسى عليه السلام!..

وهو الفارس البطل الذي حاول إقناع أهل مكة في الحديبية بالسّماح للمسلمين بأداء مناسك العمرة رغم أنه كان سفيراً لقريش!

كان سيد قبيلة ثقيف. لذا كان معروفاً في مكة. وكان أبوه من قادة وفرسان قبيلة ثقيف في حرب الفجار. وأما أمه فهي القرشية سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف. لذا فكما أن عروة بن مسعود ﷺ كان من أقرباء فخر الكائنات رسول الله عليه الصلاة والسلام لأمه، فإنه كذلك كان عديله لزواجه من آمنة بنت أبي سفيان.(ابن هشام، ٤، ١٢٦)

وهو أحد الاثنين اللذين أشار إليهما مشركو مكة لدى بدء نزول الوحي، عندما قالوا ينبغي أن ينزل الوحي على واحد من زعماء وأغنياء مكة أو الطائف، وليس على محمد. حيث جاء في القرآن الكريم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)

ونُقل في المصادر أن المقصود هنا هو عروة ﷺ. (ابن عبد البر، ٣، ١٠٦٧)

وكان الوليد بن المغيرة قد خرج معترضاً، وقال في هذه المسألة: أينزل القرآن على محمد، وأُترك أنا وأنا كبير قريش وسيدها، ويُترك أبو مسعود الثقفي سيد ثقيف ونحن عظماء القريتين؟

فقال الله تعالى رداً عليهم:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الزخرف: ٣٢)

كان عروة بن مسعود واحداً من السفراء الذين أرسلتهم قريش إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام في الحديبية. فكان أول لقاء له مع النبي ﷺ وأصحابه في الحديبية. وكان قد طلب من قريش أن ترسله لما

رأى أن بديل بن ورقاء الذي بُعث به قبله لم يأت بنتيجة.

ولم يشأ بعض المشركين الذين كانوا يعترضون على الصلح مع رسول الله عليه الصلاة والسلام الاستجابة لطلبه خشية وقوفه إلى جانب المسلمين. إلا أن عروة تمكن من إقناعهم من خلال إشارته إلى عدم تحقيق السفراء قبله أي نتيجة، وكذلك لقوله لهم أنه قرشي لجهة أمه.

ولما ذهب عروة بن مسعود إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، حاول جهده في البدء ثنيهم عن فكرة العمرة. ثم إنه أخبرهم أن المشركين قد أقسموا على أن لا يدخلوا المسلمين إلى مكة. وأنهم قرروا خوض الحرب معهم إذا اضطر الأمر إلى ذلك. وكذلك ادعى أن الذين معه من أصحابه لن يصمدوا أمام أهل مكة، وإنما سوف يلوذوا بالفرار ويتخلوا عنه عند أول ضربة سيف. فغضب أبو بكر ﷺ من قول عروة ورد عليه رداً شديداً. فأصبح عروة في موقف حرج. فلم ينبس ببنت شفه.

كان عروة أثناء حديثه مع رسول الله ﷺ يأخذ بين الحين والآخر بلحيته للفت الانتباه حسب عادة العرب. وكان في كل مرة يأخذ فيها بلحيته يقرع يده صحابي واقف إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام بمقبض سيفه. ولما علم عروة أن هذا الصحابي هو المغيرة بن شعبة ضاق صدره، وتبرم.

تأثر عروة بن مسعود تأثراً شديداً بما رآه من مشاعر المحبة والاحترام والوفاء والتعظيم التي يكنها الصحابة الكرام لرسول الله عليه الصلاة والسلام. ووقف حائراً مندهشاً من تصرفاتهم ومعاملتهم الرقيقة واللطيفة الممزوجة بالأدب والمحبة الشديدة مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومن تفانيهم في خدمته، والخضوع والتسليم له، وطاعتهم التامة لكل أوامره.

ولما عاد إلى أهل مكة أخبرهم بما رآه بعبارات مليئة بالتعجب والاندهاش تصل إلى درجة المدح والثناء. فقال لهم:

"أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً". (البخاري، الشروط، ١٥)

وأوصى أهل مكة بحسن المعاملة مع الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام، وبالسماح له ولأصحابه بزيارة الكعبة وأداء العمرة. وأخبرهم بكل جلاء أنهم هم المتضررون إن لم يأذنوا للمسلمين.

ولما رأى قريشاً لا تبالي بنصيحته ولا تلتفت إليه تركهم، وذهب إلى الطائف. وكان تشرفه بالإسلام وفق ما يأتي:

ضرب النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه حصاراً على الطائف سنة ٦٢٩م. وكان عروة بن مسعود أثناء ذلك في جرش الواقعة بأطراف اليمن لتعلم صناعة المناجيق، والدبابات. ولم يطل عليه الصلاة والسلام حصار الطائف، حيث أنهاه بعد مدة قصيرة وعاد إلى المدينة.

ولما عاد عروة بن مسعود ﷺ إلى دياره علم بالأمر. وأنار الله ﷻ قلبه بنوره، فنمت فيه محبة الإسلام، واتخذ قراره بدخول الإسلام.

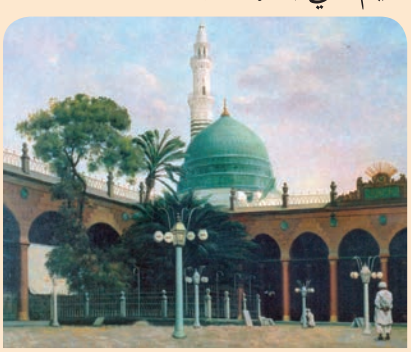

وفي شهر ربيع الأول من العام التاسع للهجرة قدم ابن مسعود إلى المدينة. فحضر بين يدي شمس العالمين سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام، فنطق بالشهادة وتشرف بشرف الإسلام.

سُر النبي عليه الصلاة والسلام بإسلام عروة بن مسعود كثيراً لكونه رجلاً ذا شرف ومروءة، ولصلة القربى التي تربطه به، ولموقفه المنصف والعادل الذي اتخذه في الحديبية.

وما إن أنار نور الإسلام قلب عروة بن مسعود حتى ثارت لديه رغبة وحماس إيماني شديد للعودة إلى قومه ودعوتهم إلى الإسلام. إلا أن النبي ﷺ لم يأذن له بالعودة بداية الأمر خشيته من سوء معاملة قومه له، أو قتلهم له. إلا أنه كان شديد الثقة بنفسه، حيث أخبر رسول الله عليه الصلاة والسلام أن قومه يكنون له محبة كبيرة، فقال:

"يا رسول الله! أنا أحب إليهم من أبكارهم، (أي أول أبنائهم)، ولو وجدوني نائما ما أيقظوني".

وبعد أن أصر عروة واستأذن للذهاب إلى الطائف ثلاث مرات، أذن له النبي عليه الصلاة والسلام، فقال له:

"إن شئت فاخرج".

فخرج عروة بن مسعود ﷺ إلى الطائف، ولما وصلها توجه إلى داره. فتوجس قومه من سلوكه هذا، إذ إنّه دخل بيته دون المرور بصنمهم الذي يعتبرونه ربّاً. ولما قدم الناس لزيارته وحيوه بتحية الجاهلية، أخبرهم أنه أسلم، ووصاهم بتحية الإسلام بقول "السلام عليكم". وتحدث لهم عن عظمة الإسلام وسمو شأنه. ثم أخذ يدعوهم إلى الإسلام قائلاً:

يا قوم! أتتهمونني بسوء؟

يا قوم! إنكم تعلمون أني خيركم نسباً، وأكثركم مالاً، وأقواكم عصبة؟

إن ما دعاني إلى الإسلام ما رأيته فيه مما لم أره في غيره! فهلموا واسمعوا ما رأيت! ولا تعرضوا عني! فوالله لم يأت رسول بأفضل مما جئتكم به!.

كان عروة بن مسعود ﷺ يأمل أن لا يخالفه أهل الطائف، ولا يعارضوه. إلا أن ما حدث هو عكس ذلك. حيث خرجت إليه ثقيف وأحاطوا به من كل جانب، وأسمعوه من الأذى ما لم يكن يخشاه منهم، وقالوا:

"واللات قد علمنا أنك صبأت عن ديننا مذ أن دخلت بيتك ولم تقترب من الرب، ولم تحلق عنده".

في شهر ربيع الأول من العام التاسع للهجرة قدم ابن مسعود إلى المدينة. فحضر بين يدي شمس العالمين سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام، فنطق بالشهادة وتشرف بشرف الإسلام.
سُر النبي ﷺ بإسلام عروة بن مسعود كثيراً لكونه رجل ذو شرف ومروءة، ولصلة القربى التي تربطه به، ولموقفه المنصف والعادل الذي اتخذه في الحديبية.

تصرف عروة بن مسعود معهم بغاية اللطف. إلا أن أهل الطائف لم يصغوا إليه ولم يأبهوا له. وفي اليوم التالي لما طلع الفجر صعد فوق بيته فأذن بالصلاة، ودعا قومه إلى الإسلام، فغضب الناس ورموه بالنبل من كل وجه، فأصيب عروة ﷺ بجراح بالغة، وأخذ ينزف دمه الطاهر. ولما احتشد أقرباؤه وحملوا السلاح ولبسوا لباس الحرب للأخذ بثأره لم يأذن لهم. وإنما أخبرهم أنه راض بالشهادة التي أكرمه الله بها، وعفا عن دمه، حيث قال:

"لا تقتتلوا فيّ. قد تصدقت بدمي على صاحبه لأصلح بذلك بينكم. فهي كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي، وأشهد أن محمداً رسول الله، قد أخبرني بأنكم تقتلوني".

ثم دعا رهطه وأقرباءه فأوصاهم، فقال:

إذا مت فادفنوني مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام قبل أن يرتحل عنكم. فلما مات دفنوه معهم كما أوصى ﷺ!.

إدريس آربات

السعادة بعيدة المنال

السعادة حالة الروح. ومنذ زمن يتم تداولها على أساس "الانشراح والبهجة في الحياة".
ويُطلق على السعادة أيضاً "فرح ابتهاج القلب".

دعونا قبل الدخول إلى الموضوع نبين السعادة ببعض المقتطفات وبصورة مختصرة:

السعادة، حالة تعبر عن رضا الإنسان عن حياته.

وإذا تساءلنا: في أي الظروف أو متى يرضى الإنسان عن حياته ويسعد؟ فإننا نواجه بالإجابة الآتية:

"عندما يجد ما يبحث عنه".

حسناً؛ ولكن هل ما نبحث عنه جميعنا، أي تطلعاتنا وطموحاتنا في الحياة هي ذاتها؟ كلا، ليست ذاتها. لأن التطلعات والطموحات مرتبطة بنمط التربية والتنشئة من جهة، ومن جهة أخرى بالبنية الروحية. وكذلك هناك تأثير للحالة الصحية، والوضع الاقتصادي، ومستوى المجتمع الذي نعيش فيه على سعادتنا. ويلعب الإيمان أيضاً دوراً مهماً وأساسياً في هذه المسألة. إذ لا شك أن الإنسان الذي يعتقد أنه لا يعيش وفق ما تقتضيه المبادئ التي يؤمن بها سيكون مضطرباً وقلقاً حتماً. فالمعيشة غير المصطبغة بالصبغة الإسلامية لن تدع لدى الإنسان الطمأنينة والسكينة. لأن فطرتنا مبرمجة ومضبوطة على ديننا. "الله تعالى هو من يفتح صنبور السعادة، وهو من يغلقه".

" ليس بالإطراءات السخية يتم إسعاد الآخرين سعادة حقيقية، وإنما بالقيام بأشياء قيمة ومهمة".

يُفهم من مقولة: "تعرفت على دينك، فتصالحت مع نفسي" أن الحياة التي تطلبها فطرتنا هي الحياة التي عرضها علينا ديننا.

إن سورة الانشراح تلفت أنظارنا إلى ميادين، والآية:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) تلفت إلى ميادين أخرى مختلفة.

وعبارة "الإنسان البسيط إنسان سعيد" تدل على حقيقة أخرى.

إن ما نسميه "الوجدان أو الفطرة" هي بعد آخر لمسألة الصوت الذي يعلو ويخرج من داخلنا.

وهناك أمر معروف وثابت أيضاً وهو "لا يمكن أن ينجو من يقصر في أداء واجباته من عذاب الضمير/ الوجدان".

وإن مقولات مثل: "وهل في هذه الدنيا عذاب جهنمي أكبر من عدم القيام بكل ما هو متاح".

و: "أليس الاضطرار لقول "ليت" دليل على اضطراب يعصف بأعماق الإنسان؟" مرتبط بالفطرة السليمة والوجدان.

والآن دعونا نحاول بعد هذه الخطوط العريضة الدخول قليلاً إلى التفاصيل:

نحن نقول أن "الإنسان يسعد إذا وجد ما يبحث عنه". إلا أن القرآن الكريم يقول:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (المعارج: ١٩) .

أي أن الإنسان يطلب المزيد دائماً، فكلما وجد شيئاً فإنه يبحث عن غيره ولا يكتفي به.

ولهذه الصفة جانب إيجابي، وآخر سلبي. فأما الجانب الإيجابي فهو:

أن الإنسان مهما حقق من أمور جميلة وحسنة، ومهما كثرت الأشياء والمكتشفات التي توصل فإن عينيه ستكون متجهة للأعلى، وباحثة عن الأفضل والأحسن دائماً. وهذا يعني استدامة البحث والتفتيش وإنتاج المزيد من الحسن والجمال. وهذا الأمر ينطبق على الحسن المادي، والحسن المعنوي على حد سواء. فأجمل الشعر لم يُنظم بعد، وأجمل الأغاني لم تُلحن وتُغنى بعد، وأجمل المدن لم تُبنى بعد. ودائماً ليس هناك فضيلة إلا وفوقها فضيلة أخرى.

وأما الجانب السلبي فهو:

يُقال: "إن حاجات الإنسان لها حدود، وأما مطامعه فليس لها حدود". وهذا صحيح. "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب". وإن إنسان الرأسمالية يحرك هذا الجانب باستمرار ويزيد إلى أمواله أضعافاً أخرى. وهو ما يقود إلى سلوك مسلك قارون.

إن مقولة: "عثور الإنسان على ما يبحث عنه سبب لسعادته" تكشف عن أمر آخر. فكما أن الناس مختلفون عن بعضهم من حيث البنية المادية الجسدية، فكذلك هناك اختلاف بينهم في البنية الروحية، وعوالم القلب أيضاً. إذ كما أن هناك أناس ذو ميزات خَلقية عالية ويتمتعون بقوة كبيرة في الجوانب والعقلية، والحسية، فإن هناك أناس أقل قوة وأدنى درجة في هذه الجوانب. أي أن الناس مختلفون من الناحية الخَلقية. وإن الاختلاف في التنشئة، والتربية والتعليم سوف يؤدي إلى مزيد من الاختلاف، واتساع الهوة بينهم بشكل أكبر. ومن ثم فإن جرعات سعادتنا أو تعاستنا وأحزاننا ستكون مختلفة أيضاً.

إن مقولة "الإنسان البسيط، إنسان سعيد"، تشير إلى أن الإنسان الساذج الذي لم يتلقى تربية وتعليماً صحيحاً وسليماً سيكون سعيداً ومسروراً بإشباع الغرائز والشهوات. ولكن لا بد أن نبين أن هذا ليس

إن الدوافع والمحركات الكامنة في قلب الإنسان لا تهدأ ولا تكن حتى وإن وجد ما يبحث عنه. فإن توجهت دوافع القلب نحو الجانب الإيجابي فإنه يمتلأ بالأحزان الجديرة بالاحترام. وأما إن تحركت هذه الدوافع في الجانب السلبي فإن صاحب القلب يقبل على الخمور، والمخدرات، وربما يصل به الأمر إلى الانتحار.

سعادة وإنما لهو. إنه مجرد تمضية للأيام المعدودة للعمر على خط سوي دون تغيير. وعدم اقتراب من حبل التسلق والصعود. فهذا الإنسان لن يقدم شيئاً للمجتمع، ولن يسهم في رفع مستوى الإنسانية. إنه سوف يمضي عمره كحمل على الأرض، وعائق أمام صعود المجتمع.

وأما الإنسان ذو المستوى الخلقي العالي، والذي تلقى تربية وتنشئة حسنة، فإنه مهما قدم من مكتسبات وإنجازات للبشرية سيبقى هناك صوت يناديه من داخله قائلاً:

"ما زال هناك الأفضل، ما زال هناك المزيد".

فهؤلاء هم مشاعل المجتمعات، والذين يوقفون حياتهم في سبيل خير البشرية. فالدنيا لا تتسع لهؤلاء ولا تكفيهم، وينابيع قلوبهم لا تنضب أبداً.

ويمكن القول أن هؤلاء أناس اضطلعوا على مظاهر الانسجام والتناغم، والسمو، والجمال السائدة في الجنة. فمن هؤلاء يخرج كبار الفنانين والصناع، وأصحاب القلوب الرحبة والطيبة. وإن تحقق سعادة هؤلاء بالمعنى المعروف ليست بالأمر السهل. فداء هؤلاء صار دواء. وإنتاج الأشياء العلوية والسامية بالنسبة لهؤلاء بمثابة الطعام، والهواء، والشراب. ودون هذا الإنتاج يستحيل تحقق سعادتهم، وعيشهم. وإن سعادة هؤلاء سعادة ممزوجة بالحزن على الدوام.

إن الإيمان أو عدمه عامل شديد التأثير في مسألة سعادة الإنسان وشقائه. فالإنسان المؤمن يشعر بالسعادة بنسبة تطبيق إيمانه على أرض الواقع أو بنسبة جعله تطبيق إيمانه قناعة راسخة لديه. ومن جهة أخرى فإن وجود الله والآخرة يشكل للمؤمن متنفساً أمام شدائد ومصائب الحياة المريرة والمؤلمة. إذ من أين للإنسان أن يجد المواساة إن لم يكن هناك إيمان؟ فالذي يغرق في مستنقع الغرور والكبر خلال أيام الرخاء، سيقع بين براثن اليأس والقنوط في أيام الشدة.

وهنا دعونا نستذكر مقولة: "الله هو من يفتح صنبور السعادة وهو من يغلقه".

لا ريب أن الله تعالى بمقتضى اسمه الرحمن والرحيم، ومحبته الشديدة لعباده، وحثه على الخير سوف يكافئ عباده المؤمنين الذين لا ينقطعون عن الأعمال الصالحة في الدنيا قبل الآخرة، وهذه المكافأة الدنيوية أن يفتح لهم صنبور السعادة ليغترفوا منها حتى الارتواء. وفي الواقع وكما قالت لطيفة أرتكين ليس في باب المحبة- السعادة شيء يقدمه الإنسان للإنسان. فهذه لا تكون من الإنسان للإنسان، وإنما من الله تعالى للإنسان. ومن هنا يتولد الانجذاب والرغبة بالتوجه نحو المجاهيل. فعندما لا يجد الإنسان ما يبحث ويفتش عنه في عالم الإنسان فإنه إما سيتوجه إلى المجاهيل، وإما إلى الله عز وجل. وهنا تتجلى الحكمة القائلة: "إنه الإيمان ذاك الجوهر، فيا إلهي ما أعظمه".

ولا بد أن نذكر هنا مقولة: "تعرفت على دينك، فتصالحت مع نفسي". يُراد القول: "يا رب لقد هدأت آلام روحي وقلبي عندما بدأت بالالتزام بدينك".

ولا بد أن نعلم أن عالماً مثل ألكسيس كاريل والذي نال جائزة نوبل في الطب مرتين قد ألف كتاباً اسمه "الإنسان ذلك المجهول".

فهو يقول لا نعرف الإنسان. وجاء في القرآن الكريم:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ؟﴾ (الملك: ١٤)

وعلى ذلك فإن الظروف التي تُسعِد الإنسان، هي الظروف المتشكلة والمهيأة وفق القرآن الكريم. أي إذا لم تُنظم الدنيا وفق مبادئ القرآن العظيم من بابها إلى محرابها فلن يجد الإنسان السعادة بمعناها الكامل، وإنما سيضطر إلى الاكتفاء بها بشكل جزئي ونسبي. ومثل هذه الدنيا المتوافقة مع القرآن الكريم تبدو بعيدة المنال، وبعيدة جداً.

كلما أكثر الإنسان المؤمن من عمل الخير فإنه يتذوق طعم ولذة السعادة حتى وإن كان منكسراً. ويجد في الدنيا المحكومة بالموت مجالاً للتنفس إلى حد ما. ويقدر بجدارة على حل مشاكل الحياة قبل استفحالها. وأما إذا عمل من لا يضعون الإيمان في حسبانهم في هذه الدنيا خيراً فلا ريب أن الله تعالى بمقتضى عدالته المطلقة سوف يرسل إليهم رياح السعادة، ولكن لا أدري إن كانت جبال التشاؤم التي تحيط بهم من كل جانب سوف تسمح لهذه الرياح بالوصول إليهم، أم لا.

سئل تولستوي: ما سر سعادتك؟

فأجاب:

"أفرح بما عندي، ولا أشغل بالي بما ليس عندي".

فهذا ما يقال عنه الوصفة!

فمرحى لمن استطاع تطبيقها.

والآن أعتقد أنه قد اتضح الموضوع:

فحالة الروح التي يقال لها السعادة مراتب وصعبة التحقيق.

" إن لم تقف بين يديه لن تجد السعادة."

لقوم يتفكرون

يدأب الإنسان على آلية عمل النظام الكوني، لأنه يعيش منذ لحظة ولادته في هذا النظام الدقيق الذي لا يسري إليه أدنى خلل أو شذوذ.

عندما تقلع طائرة من المطار تُوجَّه إرشادات إلى الركاب من الطاقم المسؤول، فيُقَال لهم:

"في حال تعرض الطائرة لنقص الأوكسجين سوف تنزل الكمامات من فوقكم، وتعمل أسطوانات الأوكسجين. وعليكم استخدامها بهذه الطريقة..."

ولكن لا أحد من الناس يتساءل قلقاً فيقول مثلاً: يا تُرى هل سينخفض في الغد مستوى الأوكسجين. ولا نشعر بالخوف من عدم حلول الصباح، أو عدم شروق الشمس، أو عدم قدوم الربيع. إلا أن الذين يتفكرون يدركون النظام العظيم الذي يكمن في هذه الأمور، ولهذا فإن الحق سبحانه وتعالى يقول في كثير من الآيات القرآنية:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢١)

أي إن الحِكم تتجلى للذين يتفكرون ويتأملون بآلاء الله تعالى. ولا شك أن هذا الأمر يكون وفقاً لمستوى القلب، إذ إن القلوب التي تتبع خطوات الشيطان، أي الغارقة بالذنوب والمعاصي تكون عمياء وصماء أمام هذه التجليات الإلهية. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (النمل: ٨٠)

وذلك لأن الكافرين ما هم إلا جثث حية.

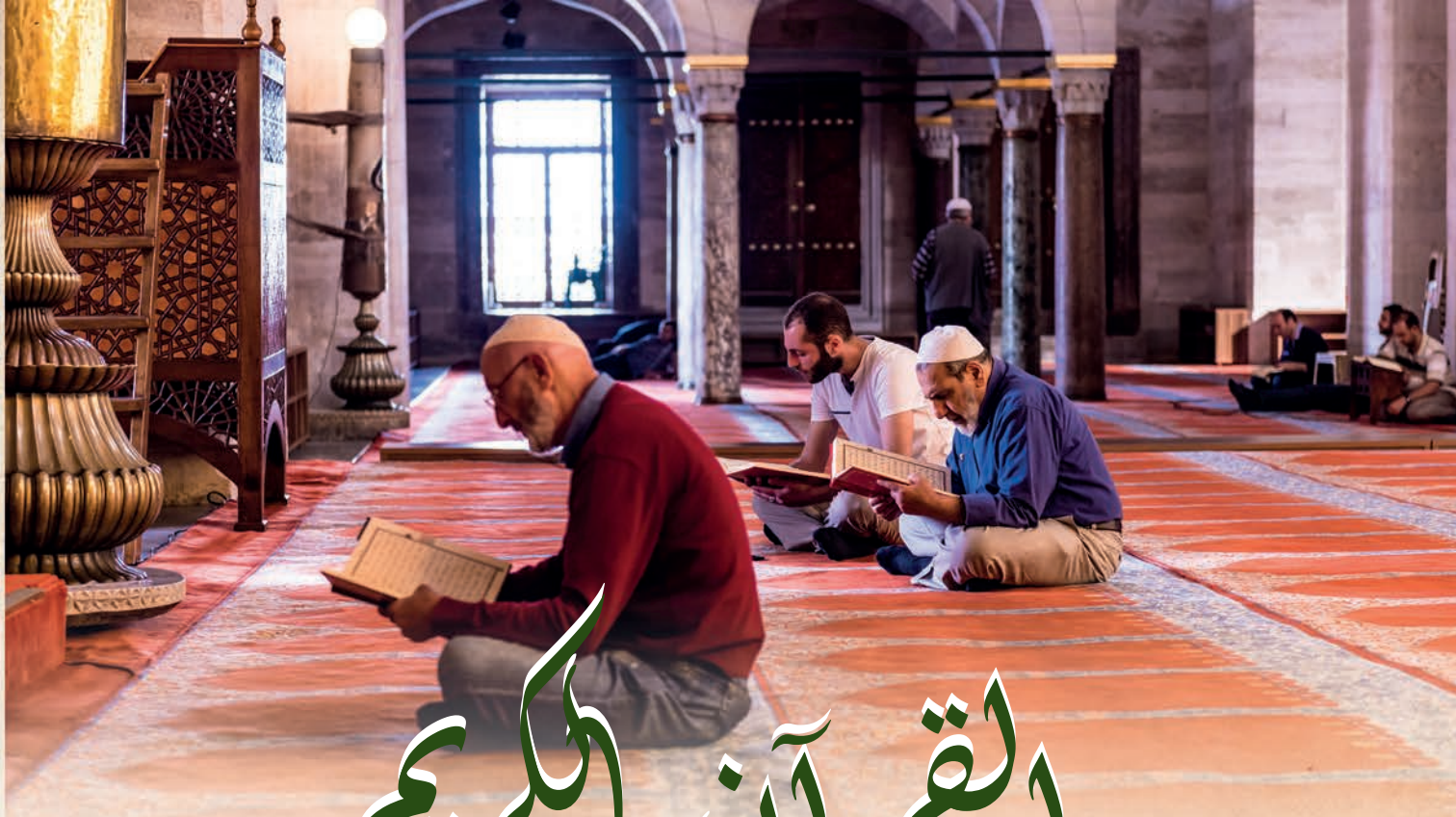

القرآن الكريم
مصدر عزة وشرف

الدكتور: كريم بولادي

إن الغاية من تنزيل القرآن الكريم الذي هو مصدر هداية الناس جميعاً إنما هي تنظيم حياة الإنسان الدنيوية والأخروية. وحسب ما جاء في البيان الإلهي قوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ...﴾ (النساء: ١٠٥)

فإن القرآن الكريم قد أنزل ليكون موجهاً لسائر ميادين الحياة. وإذا أردنا أن نجعل هذا الكتاب الحكيم الذي هو كلام الله تعالى كتاب حياة فينبغي أن نقوم قبل كل شيء بفهمه فهماً صحيحاً. فما من مجتمع جعل القرآن مرشداً ودليلاً لحياته، ونجح بفهمه قدر استطاعته إلا ورفعه القرآن وسما به بين المجتمعات، ولم يخذل القرآن مثل هذه المجتمع أبداً.

يقول الكاتب الفرنسي تشارلز ميسمر (Charles Mismer) الذي أقام في اسطنبول لسنوات طويلة: "كيف يمكن أن يُنسب سبب تخلف المجتمعات الإسلامية اليوم إلى الإسلام بعد أن كان القرآن العامل الرئيسي والوحيد لحضارة دامت ألف عام وبلغت قمة الديمقراطية، والشمول، والرقي والمدنية والتقدم والتي لم يُر مثلها على وجه الأرض إلى اليوم!".

إن ما يقوله ميسمر يشير إلى أن المسلمين يعانون من ضعف وجهالة حقيقية خطيرة في فهم القرآن الكريم. فالمسلمون في العهود التي فهموا فيها القرآن الكريم بشكل صحيح، وعرفوا قيمة وأهمية هذه النعمة جيداً كانوا دائماً في مقدمة المجتمعات وكانوا أمة ناجحة مهابة الجانب لها اعتبارها ووزنها. ولن يفلح المسلمون الآن في القضاء على ما يسود العالم

الإسلامي من مظاهر الاضطهاد والظلم، والتخلف من دون فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً، وجعله منهج ودليل حياة.

إن القرآن الكريم يقدم للإنسان العقيدة التي تقوم على وجود الله ووحدانيته، ومبدأ العبودية لله تعالى، ويؤمن له الارتباط بإخلاص وصدق بدين الله سبحانه وتعالى.

والقرآن الكريم يجعل من المؤمنين شخصيات بناءة، ومُصْلِحة، وفعَّالة، ومبادرة، ونشيطة، ومفعمة بالطاقة والحيوية.

ويقدم القرآن للمؤمن من خلال نفحات الرسائل الإلهية العزَّة الباعثة للحياة والأمل مثل:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)

﴿... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ (المنافقون: ٨)

حيث يكوِّن له قوة الشخصية، والثقة بالنفس، والحياة العزيزة الكريمة.

لقد سما القرآن الكريم على مر التاريخ بأتباعه جميعاً، ولم يقتصر ذلك على العرب فقط. فقد كوفئت كافة الشعوب والأمم التي قبلت الإسلام ديناً بالقوة، والعزة، والتفوق الحضاري الناصع والتطور طيلة المدة التي التزمت فيها بالقرآن الكريم وجعلته دستور حياتها. فقدم العرب، والأتراك، والفرس، والهنود بعد اعتناقهم الإسلام حضارات ومدنيات أدهشت العالم على مر القرون.

القرآن الكريم مصدر شرف للإنسانية جمعاء. فما نال الذين أحبوه، واحتضنوه، والتزموا بأحكامه، وتمسكوا به من صميم قلوبهم إلا السمو والرفعة والشرف. وقد أكد هذه الحقيقة القرآن الكريم، حيث يقول الله ﷻ:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٣- ٤٤)

لقد سما القرآن الكريم على مر التاريخ بأتباعه جميعاً، ولم يقتصر ذلك على العرب فقط. فقد كوفئت كافة الشعوب والأمم التي قبلت الإسلام ديناً بالقوة، والعزة، والتفوق الحضاري الناصع والتطور طيلة المدة التي التزمت فيها بالقرآن الكريم وجعلته دستور حياتها.

إن وجود مثل هذا الكتاب الذي تولى الله تعالى حمايته وحفظه لهو لطف وإحسان عظيم للبشرية بأسرها. فالقرآن الكريم يُعد بشرى، وهداية ورحمة لجميع المؤمنين والصالحين ، ويجب أن يعي ويدرك الإنسان أن معرفته بهذا القرآن،، وتلقيه خطابه إنما هو سعادة عظيمة ما بعدها سعادة.

القرآن الكريم هدى لمن يتقون الله ﷻ ويخشونه، ويقدرونه حق قدره. والقرآن كتاب رحمة. فلن تجد الإنسانية الحياة والنماء والسمو دون قطرات الرحمة التي يمطرها القرآن المنزل على سيدنا محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين .

فالقوة الوحيدة التي من شأنها الوقوف كسد منيع أمام سائر الفلسفات والأفكار الهدامة التي تفسد فطرة الإنسان، وتشوهها، وتضله عن الصراط المستقيم إنما هي دستور القرآن.

إن كانت البشرية قد نجحت على مر التاريخ في تأسيس حضارات ومدنيات مختلفة فإنما هي مَدِينة في ذلك للكتب المقدسة ذات المصدر الإلهي عامة، وللقرآن العظيم خاصة.

فهذه الحقيقة هي أساس كل الحضارات، ومظاهر الرقي والصعود لدى الأمم، والفضائل الأخلاقية،

لا تحصل العزة للمؤمنين والنصر على الأعداء والتمكين في الأرض مشروط بقيامهم بما أوجب الله عليهم بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ، والعمل بالإسلام والإيمان ظاهراً وباطناً.

وسائر الفعاليات والأنشطة التي تليق بشرف وكرامة الإنسانية.

لما صار القرآن الكريم هادياً ومرشداً للشعب التركي، قدموا أعمالاً وإنجازات خالدة. ونريد أن ننقل هنا صورة توضح لنا هذا الجانب. أثناء تجوال يحيى كمال بياتلي (١٨٨٤/ ١٩٥٨) في قصر طوب كابي لم يستطع إخفاء دهشته وإعجابه أمام المناظر والحقائق التي شاهدها هناك. ولما زار جناح روان (Revan) في قصر طوب كابي سمع صوت تلاوة القرآن يأتي من بعيد. فأخذ يتجه نحو ذلك الصوت، وسأل الدليل الذي يرافقه عن مصدر هذا الصوت. فأجابه الدليل أنه صادر من دائرة أو مبنى البردة الشريفة. ودعونا نستمع إلى ما يقوله بالذات عما حدث بعد ذلك:

"وقفنا أمام نافذة من الطراز التركي لغرفة خضراء كالجنة حيث يحتفظ فيها ببردة نبينا عليه الصلاة والسلام. كان في الغرفة حافظان. أما الأول فكان يجلس مكتوف اليدين، ومغمض العينين. وأما الآخر فكان جالساً على ركبتيه، ويتلو بصوت مرتفع وخاشع. فسألت دليلي السيد لطفي: متى تتم قراءة ختمة القرآن الكريم عند البردة الشريفة؟

فتبسم السيد لطفي، وهمس في أذني قائلاً:

كل يوم، وكل ساعة، وكل لحظة! إنه يتلى منذ أربعة قرون ليلَ نهارَ دون توقف!. لقد كنت من الدهشة والتعجب أستمع وأنا مغمض العينين. ثم قدم السيد لطفي بعض المعلومات، فقال:

"لقد جلب السلطان ياوز سليم البردة الشريفة وباقي الأمانات المقدسة التي هي علامة الخلافة من مصر إلى اسطنبول، ووضعها في مكان مرتفع داخل القصر منذ ليلة وصولها إلى اسطنبول. وبينما كان المعماريون منكبون على تجهيز المكان الذي سوف توضع فيه الأمانات كان السلطان واقفاً ينتظر انتهاء العمل بفارغ الصبر، وبقي كذلك حتى الصباح رغم تعب السفر. وفي تلك الآونة تم تنظيم برنامج وإحداث وظيفة لتلاوة القرآن الكريم عند البردة الشريفة ليل نهار دون انقطاع، وتم تعيين أربعين حافظاً للقيام بهذه المهمة على أن يكون هو بالذات واحداً منهم. ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن يتلى القرآن في هذا المكان دون توقف ولو للحظة واحدة. وعدد الحفاظ الآن أربعون حافظاً يتناوبون فيما بينهم بشكل ثنائي. واليوم هذان الحافظان هما المناوبان".

لقد قطع السلطان مسافة آلاف الكيلومترات وهو على رأس جيشه متجهاً من مصر إلى اسطنبول، ثم أصرَّ على الانتظار، وعدم مفارقة الموقع ولم يأخذ قسطاً من الراحة قبل تجهيز موضع لائق بالبردة الشريفة، ألا يستحق هذا الموقف التوقف والتأمل؟.

ألا يدل التحاقه بحلقة الحفاظ، واشتراكه مع فريق الختم حيث هو أحد الحفاظ، ألا يدل على إخلاصه، وتواضعه، وتعظيمه للقرآن؟

ألا يزاح الستار بذلك عن سر حكم العثمانيين للعالم؟

ويتابع يحيى كمال حديثه، فيقول:

"بينما أكتب هنا في هذه الليلة، وفي هذه الساعة هذه السطور يرتفع صوت تلاوة القرآن في موضع البردة الشريفة! وبينما أنتم تقرؤون سطوري هذه، يُتلى القرآن الكريم في موضع البردة الشريفة! إنه لا يزال يتلى دون توقف منذ أربع مائة عام".

عندما كان يحيى كمال يسطر كلامه هذا، وعندما كانت هذه السطور تُقرأ ذاك اليوم، كانت تلاوة القرآن القائمة في موضع البردة الشريفة منذ أربعة قرون تشق طريقها نحو المستقبل. نستنتج شدة تأثر يحيى كمال بهذه الحادثة من كلامه حيث يقول:

"إن هذه الفكرة لا تزال منذ ذلك اليوم تخفق في ذاكرتي مثل عقرب الساعة. منذ ذلك اليوم شعرت كم كانت للخلافة مكانة مهمة وتأصل عظيم في قلب الأتراك. إذ لم أكن أعلم من قبل أن صوت القرآن كان يعلو دون توقف منذ أربعة قرون في مثل هذا المقام في اسطنبول مركز الخلافة. ولا يعرف هذه المسألة الكثير من الأتراك، بل الكثير من سكان اسطنبول. ولم يستطع كل ما جرى على هذا القصر من أشكال الثورات والاضطرابات، وعزل السلاطين إسكات صوت القرآن الذي ما يزال يصدح منذ أربعة قرون. وبعد إدراكي واطلاعي على هذه الحادثة صرت وكأني وجدت الجواب عن شبهة أو تساؤل: لم لا نُخرج من اسطنبول ونفقدها؟".

بعد تصريح يحيى كمال وبإخلاص وصدق وشجاعة عن عدم علمه بوجود ختم القرآن الكريم عند البردة الشريفة والمستمر منذ أربعة قرون حتى زيارته التي قام بها لقصر طوب كابي، فإنه يؤكد أن هناك الكثير من الأتراك بل الكثير من سكان اسطنبول نفسها لا يعرفون هذه الحقيقة. وإن إشارته إلى فهمه لسبب عدم خسارتنا اسطنبول وتخلصه من شبهته حول هذا الأمر بعد اطلاعه على هذه الحقيقة بغاية الأهمية. وإننا بدورنا اليوم إما أن لا نعرف القيمة التاريخية لتلك الأماكن المباركة، أو نعرفها من الآخرين. فنحن ما زلنا لم نبعد الشبهة من عقولنا. ولعلنا لا نزال نعاني من صعوبة فهم وإدراك أن تحول الدولة العثمانية إلى دولة عظمى وصاحبة الكلمة الفصل في العالم إنما كان بسبب احترامهم وتعظيمهم للقرآن. ويتابع يحيى كمال الحديث عن انطباعاته في قصر طوب كابي، فيقول:

"لقد اكتشفت حقيقة عظيمةً خلال جولتي. وهي أن لهذه الدولة أساسان معنويان، الأذان الذي أمر برفعه الفاتح من منارة آيا صوفيا والذي لا يزال يُرفع. وتلاوة القرآن الكريم عند موضع البردة الشريفة التي قررها ياووز سليم، والتي لا تزال مستمرة. فيا جنود أسكي شهير، وأفيون كارا حصار، وقارس! إنكم ناضلتم وجاهدتم في سبيل شيء عظيم بهذا القدر من الحسن والجمال".

أجل؛ إن القرآن أساس هذه الأمة وسبب وجودها. والنبي ﷺ الذي بلغ القرآن هو حبيب هذه الأمة. وقد حافظت هذه الأمة على أمانتي القرآن والسنة اللتين تركهما لها بأرواحها وأموالها، وقدمت في سبيل خدمة هاتين الأمانتين مختلف أشكال التضحيات.

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

"..وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله...(صحيح مسلم: ١٩٠٥)

ومن جانب آخر فإن هذه الأمة قد جعلت أشياء النبي ﷺ الشخصية تاجاً على رأسها، وحفظتها في أفضل المقامات، وتعاملت معها بمنتهى الاحترام والتبجيل. وكما قال يحيى كمال فإن هذه الأمة تحافظ على وجودها بوجود هاتين الأمانتين المودعتان لديها.

آدم ســـراج

التربية المعنوية في عصر السعادة

يعمل الإسلام على تربية وتنشئة أتباعه، ضمن مبادئه وقواعده الخاصة، ويُطلق على الإنسان الذي ترعرع وتربى في أحضان المبادئ الإسلامية اسم "المسلم" أو "إنسان الإسلام"، وفي الواقع فإن كل دين، وكل نظام، وكل مؤسسة وكيان، تعمل على تربية وتنشئة أتباعها وأعضائها وفقاً لقواعدها ومبادئها الخاصة. وإذا تربى الإنسان ونشأ في ظل قواعد وأحكام أي نظام من الأنظمة فإنه يصبح إنسان ذاك النظام، أو من أتباعه، وإن بناء وتكوين شخصية إنسان ما يكون بمقدار التربية التي تلقاها. وجوهر تربية الشخصية هو التربية المعنوية.

ولما كانت التربية المعنوية تتمتع بهذه الدرجة من الأهمية فقد ركز الإسلام عليها مع أول نزول الوحي. وإن مفتاح التربية هو القراءة. وهذا أول أمر يوجهه الإسلام إلينا، إلا أن الأمر الذي ما ينبغي أن نغفل عنه هو "اقرأ باسم ربك". إذ لا شك أن الذي يعلم بنا أكثر من كل الكائنات، هو خالقنا، فالله هو الأعلم بنا. ولعل لهذا السبب تم التأكيد على بُعد "الخالق" بشكل خاص. فهنا يُراد صراحة وبشكل جلي أن يكون العبد في حالة معية دائمة مع ربه. حيث يُؤمر العبد بارتباط مستمر مع الله تعالى. وهذا الارتباط لا يتحقق إلا من خلال التربية المعنوية. وهو ما يُطلق عليه في التصوف مرتبة المعية.

علينا أن ندرك ونفهم أمر الله تعالى بشكل صحيح، فنحن مكلفون بفهم صحيح وسليم لدعوة نبينا عليه الصلاة والسلام والعيش وفقها. وإن الله ورسوله يدعوان مجتمعاً وصل إلى حافة الانهيار من كافة النواحي، إلى الخلاص والنجاة، ويدعوانه قبل كل شيءٍ إلى عقيدة التوحيد، للتطهر والتنقية. فالإيمان تطهر، وتنقية، وخلاص. الإيمان تطهر من سائر الخبائث والنجاسات وعلى رأسها الشرك.

إن الإسلام تسليم واستسلام؛ والمسلم إنسان مستسلم. ورأس كل أمر هو الاستسلام لله ولرسوله.

إن مفتاح التربية هو القراءة. وهذا أول أمر يوجهه الإسلام إلينا، إلا أن الأمر الذي ما ينبغي أن نغفل عنه هو "اقرأ باسم ربك". إذ لا شك أن الذي يعلم بنا أكثر من كل الكائنات، هو خالقنا، فالله هو الأعلم بنا. ولعل لهذا السبب تم التأكيد على بُعد "الخالق" بشكل خاص. فهنا يُراد صراحة وبشكل جلي أن يكون العبد في حالة معية دائمة مع ربه. حيث يُؤمر العبد بارتباط مستمر مع الله تعالى. وهذا الارتباط لا يتحقق إلا من خلال التربية المعنوية. وهو ما يُطلق عليه في التصوف مرتبة المعية.

وكما التسليم مصدر كل حسن وطهارة، فإنه أساس التربية المعنوية أيضاً.

يُراد لنا الابتعاد عن الأخلاق الذميمة، والتحلي بالأخلاق الحميدة. وأن نطهر عالمنا الداخلي من الشرك، والكفر، والإنكار. نطهره من الكذب، والنفاق، والغيبة، والنميمة. وهذا الأمر من أساسيات التربية المعنوية. يقول ربنا ﷻ "قم الليل". قم لأجل المهمة العظيمة التي بانتظارك، قم لرفع الحمل الثقيل الذي ينتظرك على ظهرك، قم من أجل العمل، والسعي، وخوض الصعاب، وتحمل المتاعب، والآلام وألوان الأذى، قم واستعد لهذه المهمة العظيمة والمقدسة، واخضع للتربية التي تقتضيها، وجوهر هذه التربية هو قيام الليل! فمن لا ليل له لا نهار له!.

إن أحد عيوبنا ونواقصنا اليوم، هو قلة عباداتنا الليلية. فالله ﷻ يدل رسوله الكريم ﷺ على طريق النجاح في الجهاد والنضال، الذي سيخوض غماره. ويريد له الاستقواء بمعية ربه في عبادات الليل، وهذه المسألة من جوهر التربية المعنوية أيضاً.

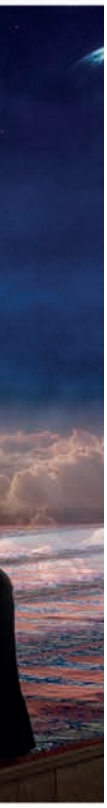

صلم يكن النبي ﷺ خلال دعوته الناس إلى الإسلام يكتفي بإعطاء المعلومات إلى جانب الإيمان، وإنما كانت دعوته تركز على رباعية: الإيمان، العلم، العمل، الإخلاص والتقوى. فكل إنسان مكلف مبدئياً بالإيمان، فبالإيمان يصبح الإنسان مسلماً، والمسلم إنسان يعلم بماذا آمن، ولماذا، وهذا علم المسلم، وعلى المسلم أن ينقل إيمانه وعلمه إلى ساحة التطبيق في حياته، أي أن يعيش حياة متوافقة مع ما آمن به وتعلمه، وهذا عمل المسلم، وعلى المسلم القيام بالأعمال التي آمن بها، وتعلمها، ونقلها إلى ساحة التطبيق بإخلاص. أي أن يصبح كل مسلم باسمه المعروف، إنساناً ممتازاً وصاحب تقوى في الوقت ذاته، وهذا لا يكون إلا من خلال التربية المعنوية، وهذا هو التصوف!

لقد بنى النبي ﷺ القلوب ورمّمها، بالتربية المعنوية. فقد شكل من "مجتمع الجاهلية" المنهار "مجتمع عصر السعادة" القوي المتماسك، إنه شَكَّلَ جيلاً جديداً خلال مدة لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة، فصار كل واحد من الصحابة الكرام، نجماً يضيء في سماء الدنيا. كان كل واحد منهم نجماً، إلا أنه في الوقت ذاته كان لكل نجم خاصية مختلفة ومتميزة.

ولا شك أن من يتصدر قائمة أسماء الذين بلغوا الذروة في التربية المعنوية هو الصديق أبو بكر ﷺ. وفي الواقع كان هذا الصحابي الجليل سباقاً ومتفوقاً في كل ميدان، حيث كان ملازماً النبي ﷺ بشكل دائم، وله الفضل الأكبر في وصول الإسلام إلى سائر الأجيال من بعده.

رغم أنه لم يُطلق على التربية المعنوية، التي كانت منتشرة في كل نواحي الحياة، اسم عصر السعادة، إلا أنها انتشرت وانعكست تحت اسم "التصوف" على سائر العصور اللاحقة. فالتصوف بالنسبة للإسلام هو حياته القلبية، وجوهره، وجانبه الروحاني. فالتصوف تطهر، وتكامل على حد سواء. إنه تربية وتنشئة الإنسان الكامل من كافة النواحي.

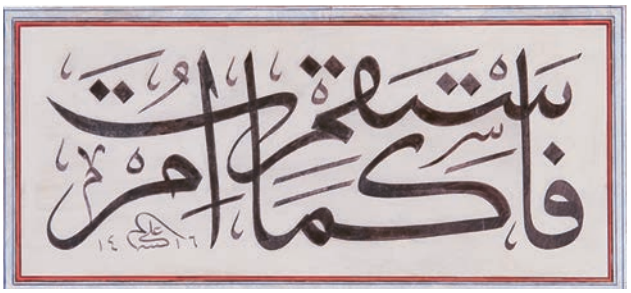

لقد لفت النبي ﷺ أنظارنا إلى أبي بكر ﷺ الذي كان رائداً وسباقاً في هذا البناء، والتكامل الداخلي. وذلك عندما اصطحبه معه في هجرته من مكة إلى المدينة، وشاركه في كل مراحل ولحظات هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر والدروس والعبر، فالليال الثلاث التي قضوها معاً في غار ثور، تساوي حياة الناس كلهم، وقد عبر عمر بن الخطاب ﷺ عن هذا الأمر بشكل لافت، حيث قال: "والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر". (الحاكم، المستدرك، ٣، ٧/ ٤٢٦٨.) كان سلطان الصحابة الذي تلقـــــى خير الدروس وأحسنها من سلطان الأنبياء يتصدر السلسلة الذهبية في الوقت ذاته.

كان غار ثور خلال رحلة الهجرة يشهد أسمى دروس التربية المعنوية، فقد تلقى أبو بكر ﷺ ثلاثة أيام وليال، دروساً فريدة وبغاية الخصوصية من النبي عليه الصلاة والسلام، وإن تلقي الدروس المعنوية يحتاج إلى إعداد وتحضير، وكان أبو بكر ﷺ جاهزاً ومستعداً له، وبعبارة أصح، فإن أبا بكر ﷺ قد اجتاز كل الامتحانات والاختبارات التي تعرض لها في الفترة المكية التي استمرت ثلاثة عشر عاماً، اجتازها بنجاح كبير منقطع النظير، أي أنه كان جاهزاً للدروس المعنوية. وكأن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان قد أعد أقرب أصحابه إليه، طوال ثلاث عشرة سنة لهذه الغاية العلوية السامية، فكان أساس العمل الجدي، جدياً أيضاً، فهذه هي التربية المعنوية الممتدة من عصر السعادة إلى يومنا هذا، وهذه الأمانة المقدسة تمتد من تلك الأيام إلى أيامنا هذه عن طريق سلسلة ذهبية لا مثيل لها.

لم تقتصر ملازمة أبي بكر ﷺ للنبي ﷺ على الفترة المكية، وخلال رحلة الهجرة فقط، وإنما استمرت قائمة على مدار سنوات الفترة المدنية أيضاً. فقد جعل حياته كلها، فداء للنبي ﷺ كما كان يعبر عن ذلك بنفسه.

لقد ترقى سلمان الفارسي ﷺ على طريق المعنويات بسرعة كبيرة، حيث أتم السير والسلوك في زمن قصير. وكان النبي ﷺ شديد المحبة لسلمان ﷺ. إذ لما اختلف عليه الأنصار والمهاجرين، و أخذ كل طرف ينسبه إلى نفسه بسبب ما كان يتمتع به سلمان من فضائل وأخلاق حميدة، قال النبي ﷺ:

"سلمان منا أهل البيت" (الحاكم، المستدرك، ج ٣، ص، ٦٩١)

وبعد انتقال النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، لازم أبا بكر ﷺ، ولم يفارقه أبداً. فكان قريباً من أبي بكر بشكل دائم، فنال من فيضه، حيث أنه وصل إلى مراتب عالية في علوم الظاهر والباطن، خلال مدة قصيرة جداً. وكان سلمان ﷺ قد تلقى دروسه الأولى من النبي عليه الصلاة والسلام، ومن بعده استمر في تلقيها من أبي بكر ﷺ. كان من جهة منكباً ومنهمكاً بحضور الدروس في حلقات سيدنا أبي بكر ﷺ، ومن جهة أخرى يلقي الدروس على الآخرين.

لقد كان سلمان ﷺ يقوم بتدريس الكثير من الصحابة من أمثاله، وكان من بين هؤلاء كبار الصحابة، مثل: أبو سعيد الخدري، وعبد الله بن عباس. وكذلك كان يدرس كبار التابعين، ويأتي في مقدمة هؤلاء قاسم بن محمد... لقد قدم الأزهار التي اقتطفها من بستان عصر السعادة، إلى قاسم بن محمد. وبعبارة أخرى، إن التربية المعنوية التي تكونت في عصر السعادة انتقلت إلى الجيل اللاحق عن طريق قاسم ـ رحمه الله ـ.

إن السلسلة الذهبية تبدأ بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام بأبي بكر ﷺ. وبعد أبي بكر يأتي سلمان الفارسي ﷺ. وبعد سلمان تستمر من خلال قاسم بن محمد...

لقد توقفنا هنا باختصار على التربية المعنوية في عصر السعادة بخطوطها العريضة. وحاولنا الإشارة بشكل مقتضب إلى عصر السعادة للسلسلة الذهبية ونقطة بدايتها، أي إلى ولادة التصوف.